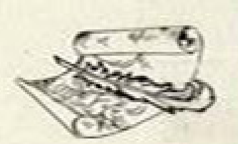
الأعلام من الأدباء والشعراء



فدوى طوقان

شعر والتزام

تأليف
غريد الشيخ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الأعلام من الأدباء والشعراء

فدوى طوقان

شعر والتزام



تأليف

غريد الشيخ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣-٨٦٨٠٥١-٦٠٢١٣٣
فاكس: ٠٠/٩٦١١/٦٠٢١٣٣ - ٠٠/١٢١٢/٤٧٨١٣٧٣

الإهداء

إلى من بسيرته علَّمنا حب القراءة والدرس. .
وبعطائه الذي لا يحدُّ علمنا حب العطاء. .
إلى من الكتاب كلُّ ما يعنيه في هذه الحياة
إلى والدي الحنون وكرمى له أقدم
باكورة إنتاجي، وأرجو أن تكون بداية العطاء الغزير. .

غريد الشيخ

حياة الشاعرة

هناك بين المروج.. في حضن الطبيعة الخلابة ولدت فتاة صغيرة حزينة.. رضعت الحزن منذ طفولتها.. قلب صغير تَفَتّحَ متعطّشاً إلى الحبّ رغم صغره.. كان جافاً ظامئاً، ويسأل الحياة عن (دفقة من نبعة حبّ).

تحبني؟ تاريخها عندي قديم
قبلك من سنين، من سنين
نشدتُها، بحثت عنها في طفولتي
نشدتها إذ كنت طفلة حزينة ـ
مع الصِّغار
عطشى إلى محبة الكبار
وكنت أسمع النِّساء حول موقد ـ
الشِّتاء.
يَرْوِينَ قصَّة الأمير إذ أحبَّ ـ
بنتَ جاره الفقير
أحَبَّها؟.. وترعشُ الحروف في

كياني الصغير
إذن هناك حُبّ؟
هناك من يحبُّ، من تُحَبّ!
وكان قلبي الحزين، قلبي الصغير ـ
ينطوي على جفافِهِ، على ظماه
ويسأل الحياة
عن دفقة من نبع حبّ
وكانت الحياة
بخيلةً، بخيلةً، أواه ما
أقسى تَعَطُّش الصغار حين ينضب ـ
الحُنُوُّ في الكبار، حين لا
يُسقى الصِّغار قطرةً من نبع حبّ.

وبدأت فدوى حياة المراهقة.. ظهرت عاطفتها واضحةً.. وقرأت قصص الحبّ جميعاً، فعرفت عروة الحزين بحبه، وعاشت حبَّ قيس وجميل.. أحبت حتى العذاب الذي شعر به هؤلاء المحبون، وتمنت أن تعيش التجربة بفرحها وألمها..

وحين فتحت براعمي وأمرع الصِّبَى [١]
وضُمِّخ الجواءُ بالعبير
عرفتها في شعر (عروة) الحزين
وعشتها في شعر «قيس» في ـ

---

(١) ديوان فدوى طوقان ـ دار العودة.. ص ٤٥٣ (تاريخ كلمة).

رؤى «جميل»
كم هزَّني تَدَفُّقُ الشُّعور في قلوبهم
كم عشت حُبَّهم، حنينهم، عذابَهُمْ
كم قال لي قلبي الحزين
«ما أسعد الأحبابَ رغمَ ما يكابدون
«كم يغتني الإنسان حين يلتقي
«هناك من يحبه، كم يغتني»
ولم يكن هناك من يحبُّني..

فدوى طوقان.. الشاعرة الأديبة هي ابنة عائلة عريقة.. ولدت في نابلس، وعاشت عمرها ضمن تقاليد خاصة بأسرتها.. نفس فدوى كانت تتوق إلى الحرية لتمارس حقها الطبيعي في الحب والحياة.. فانصرفت إلى الشعر لتعبر عن طريقه عن كل خلجات نفسها الحزينة.

كتبت عن آلامها وأحلامها، عن حبها الكبير، عن نفسها الظامئة إلى الحرية.. (اكتفت بالشعر لتعبر عن مشاعرها الحقيقية والطبيعية في نفس الوقت، حبست شخصيتها الاجتماعية في إطار التقاليد القديمة الموروثة، لقد انقسمت شخصيتها إلى شخصيتين: شخصية حقيقية عبرت عنها وعن آلامها وأحلامها في شعرها، هذه الشخصية هي باصطلاحات علم النفس هي الأنا. وشخصية أخرى كانت رقيباً على الشخصية الأخرى ومصدراً للضغط عليها، وهذه الشخصية هي «الأنا الأعلى» وقد استسلمت فدوى في حياتها الاجتماعية وسلوكها للشخصية الثانية بينما استسلمت في شعرها للشخصية الأولى.. وقد ظلّ هذا الانقسام قائماً في حياتها حتى اليوم. فهي تتحرر عاطفياً عندما

تكتب شعرها الجميل الصادق وتتقيد اجتماعياً عندما تتصرف مع الناس أو تواجه الحياة الواقعية»[1] .

وفي هذه العائلة كان إبراهيم طوقان الأب الروحي لفدوى ـ وهو الأخ الأكبر لها ـ هو الذي رباها، وأخذ بيدها لتكتب الشعر وتعبر به عن حريتها.. إنها ترى في حنان الأخ المثل الأعلى للسلوك الرجولي.. فهو يبذل لها من نفسه ورعايته دون أن ينتظر منها مقابلاً.. فحنانه هو الأسمى وحبّه هو الحبّ الوحيد الحقيقي في حياتها.. ها هي ذي تتحدث في قصيدتها «تاريخ كلمة»:

وعاد من غربته أخي الكبير عاد ـ
إبراهيم، كان قلبه الرحيم، خيّراً كبير
وفيض حبه غزير
ولفني أخي وضمني إلى جناحه
هنا استقيت الحبَّ وارتويت
هنا استردَّتْ ذاتي التي تحطمت
بأيدي الآخرين
بناءها، هنا اكتشفتُ من أنا
عرفت معنى أن أكون.

ومات إبراهيم طوقان.. مات المرشد الروحي لفدوى، الأخ المحب الرحوم.. مات المناضل البطل الذي كان على قِصَرِ حياته من

---

(١) صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر ـ رجاء النقاش ص ١٤٦ ـ ١٤٧.

أوعى الشبان الفلسطينيين وأكثرهم قدرة على التنبؤ بهول المآل، وأبلغهم حضّاً على التضامن الفلسطيني والعربي. . ولا تزال تذكره كلما حلَّت بالوطن مصيبة. . لقد حلمت به في الأسابيع العصيبة التي رافقت أزمة السويس فناجته تقول:

أخـي أرأيـت القضيـة كيـف انتهت أرأيت المصير الرهيب؟

* * *

الحب عند فدوى طوقان

رغم أن فدوى طوقان عاشت الحرمان، فإنها كانت تحبُّ الحبَّ لذاته، وتنكر على نفسها أن لا تحبَّ. ونجد هذا الحب هو المتنفس الوحيد لفدوى الذي يشعرها أنها ما زالت تعيش، فهي تستنكر على نفسها أن تعيش ولو لفترة قصيرة بدون حبّ.. فالحب هو الهواء الذي تتنفسه، والماء الذي لا غنى لها عنه... ودائماً الحبيب بالنسبة لها هو شقيق روحها، وكثيراً ما نجده يشبهها في فهمه لهذه العواطف الكبيرة التي تحملها.. فهي عواطف مثالية حالمة.. تدفع بالشاعرة لكتابة الشعر لأنه الطريق الوحيد. وتبدع فدوى في شعرها فهو ابن لهذه العلاقة المحببة إلى قلبها، وابنٌ شرعي لهذا الحبّ الذي يعايشها في فترات حياتها..

وفي كل قصة حبّ جديدة لفدوى نجد القصائد الرائعة النابعة من قلبها، ونجد رسائل متبادلة بينها وبين الحبيب.. رسائل تحمل في طياتها أسمى معاني الحب وما تعانيه مع الحبيب من مشاكل ومشاغل وهموم وآلام..

إبراهيم نجا.. شاعر مصريّ كان له في حياة فدوى طوقان أسطر

كتبها القدر وحفظتها رسائلهما المشتركة. . وكان لهذا الحبِّ أروع الأثر في شعرها وأدبها. . وفشل هذا الحب وعدم استمراره، كان للأسباب الاجتماعية التي طالما ذكرتها فدوى فالتقاليد عند عائلتها أن لا تتزوج الفتاة إلا من الأسرة نفسها وإذا لم تتزوج من الأسرة فمن الضروريّ أن تتزوج من نفس البلد: فلسطين. وإذا لم يكن الزوج من نفس البلد أو من نفس المستوى الاجتماعي فعلى الفتاة أن تظل حبيسة بيتها بلا زواج إلى الأبد.

في إحدى قصائده إلى فدوى طوقان يقول الشاعر المصري «إبراهيم نجا» «بلا أمل»:

ولست بناسٍ إذ بعثتِ رسالةً
إليّ بأمر منً وصالك عاجلِ
فجنَّ خيالي باللقاء وسحره
وصوَّر لي أني سأحظى بنائلِ
وأنكِ قد وافيتني في خميلةٍ
عليها نسيج من ضياء الأصائلِ
فأمسكتُ كفي بين كفيك ساعة
فأسكر روحينا عناقُ الأناملِ
وغنيتني شعر الهوى، فكأنني
ذهلتُ عن الدنيا ولستُ بذاهل
وأنا أقمنا وحدنا طول عمرنا
فأصبحتِ لي وحدي برغم الحوائل
ولكن حظي كان حظي فأخطأت

خطاكِ مقامي بين تلك المنازل
وعشنا على الأوهام تجمع شملنا
رسائل حبٍّ يا لها من رسائلِ
وما في يدينا غير أوهام موعدٍ
وأحلامِ لقيا كالورود الذوابلِ
فلا تحسبي أني سأنساك لحظةً
فإنكِ شُغْلي دونَ كلِّ الشواغلِ
سأحيا على حُبِّكِ ما دمتُ باقياً
وإنْ كنتُ أدري أن حُبِّكِ قاتلي[1]

وهكذا يرسم الشاعر صورة اللقاء الفاشل وصورة لعواطفه المثالية الحالمة . .

وبعد فترة قصيرة تتعرض علاقتهما العاطفية لأزمة، فظروف كل منهما لا تسمح له بالاستمرار ويكتب لها معاتباً، وتجيبه في إحدى رسائلها:

«أنا ما أسأت الظنّ بك، لا ولا أنكرت شيئاً مما قلته في رسالتك، وماذا عساي أن أنكر؟. أأنكر عطف روحك على روحي؟ أو حديثك الصادر من أعماق قلبك؟

لا وربِّك، ولكنها القيود تكبل روحي والتقاليد تكسر جناحي، والسدود تعترض دروبي. وهذه كلها تضيق عليّ، وتحول بيني وبين أن

(١) صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر ـ رجاء النقاش ص ١٤٨ .

أتخذ لنفسي نجياً أفزع إليه من قسوة الحياة، وأستضيء بضيائه في هذا الظلام الذي يكتنف نفسي، ولا يدَ لي ولا حيلة.. وأنت حين نادتني روحك، وناجاني قلبك لم تكن تدري أنك إنما تدعو كسيحة أسيرة مهيضة الجناح، وكنت أظنّ أنّ في سكوتي الخير لي ولك»[1].

يا لها من رسالة توضح وبأسطر بسيطة معاناة كاملة لحياة الشاعرة.. إنّ الحبّ يناديها ولكن القيود تكبلها وتكسر جناحيها فهي تفضل الهرب بنفسها وبحبها من أن تستمر بلا أمل. إنها في النهاية نموذج حيّ لبنات جيلها في كثير من البيئات العربية الأخرى.. لقد ضحت فدوى بحبها المرة تلو الأخرى، ورفضت كل ما تلقيه التقاليد في طريقها احتراماً لإنسانيتها.

وفي رسالة أخرى تقول:

«ماذا أقول؟ أنا خائفة، إن قلبي يكاد ينفجر في صدري مما يملؤه، أنا لا أستطيع أن أقوم بكل هذا العبء.. فخذ أنت بيدي.. أناشدك الله، وأتمنى على مقاومة هذه العواطف الجامحة، أتوسل إليك أن تقطع رسائلك عني.. لا، لا أريد أن تكتب إليّ بعد اليوم، كن عوني على هذا البلاء العظيم، إنني أضيق به ولا أطيق له احتمالاً، فوداعاً، برغم قلبي أقولها، إنها كلمة أجد فيها مذاق الموت، سأذكرك ما عشت، سيحنّ إليك قلبي ما دام في قلبي نسمة حياة»[2].

---

(١) صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر ـ رجاء النقاش ص ١٥١ ـ ١٥٢ ـ ١٥٣.
(٢) صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر ـ رجاء النقاش ص ١٥٢.

وهكذا انتهت هذه القصة العاطفية بين فدوى طوقان والشاعر إبراهيم نجا.. بعد أن عانى كلاهما خلالها من المشاكل المتعددة.. فالحب المثالي والعاطفة العنيفة قد حكم عليها بالفشل لأن الواقع والقيود تهشم كل ما هو عاطفي وجميل في حياتنا..

وأثمرت هذه القصة بعضاً من أروع قصائد فدوى طوقان ورسائل محمّلةً بالحب والإلهام.

وكل قصيدة من قصائد فدوى طوقان ترتبط لديها بذكريات معينة وبشخص واحد تتوجه إليه باثّة إياه حبها وأشواقها.. قصيدة (غب النوى) التي كتبتها عام ١٩٤٩ ووقعتها باسم «المطوَّقة» تعبر عن عاطفة روحية عميقة التأثير في نفسها فهي على أثر علاقة لها مع شاعر مصري اشترك ـ متطوعاً ـ في بعض معارك فلسطين (١٩٤٨ ـ ١٩٤٩) والتقى خلالها بالشاعرة وكان بينهما حب روحي عميق، ثم افترقا بعودة الشاعر إلى مصر.. كتبت فدوى طوقان بعض القصائد على أثر الفراق ومن بينها هذه القصيدة:

غبّ النوى

مضيتَ؟ إلى أينَ؟ هلاّ تعود
إليَّ، إلى روحِيَ اللائبِ
حنانَكَ، ضقتُ، وضاقت حياتي
بهذا الصدى المحرق اللاهبِ
بأشواقي العاتيات تزلزل صدري

في عنفها . . الصاخبِ
حنانَكَ قلبي يذوبُ وراءك
أواه من قلبيَ الذائبِ
تلفت، وراع بقاياه تذوي
وتفنى مع الأمل الغاربِ[1]

ثم تعاتب الحياة لأن الحبيب بعيد والقلب يعاني الوحدة والأسى . .

وتذكر الماضي القريب البعيد . . بالأمس كان الحبيب يمر على هذا الدرب معها . . وكأن الجنة كانت ملكاً لهما . .

مضيت؟ فيا لحنيني إليك ... وواهاً لأمسي القريب البعيدِ
زمان أمرّ بدرب الكروم ... وللدرب نفح جنان الخلودِ . .
ويشرد طرفي ويطوي المدى ... ولقياكَ غاية طرفي الشرودِ
وفي القلب نارٌ جَمُوحُ الوقود ... ينادي بها الشوق: يا نار زيدي
وطرفي قريرٌ بذاك الشرودِ ... وقلبي سعيد بذاك الوقودِ[2]

إنها الذكريات فقط . . الذكريات الخوالي التي تثير لهيب الحنين . . إنها تستجمعها فقط خوفاً عليها من أن تدفن تحت ركام السنين . .

سل الدرب كم جئتُ غبّ النوى ... أجرّ الخطى في الغروب الحزين

---

(١) غب النوى ـ ديوان فدوى طوقان ص ٦٩ .
(٢) غب النوى ـ ديوان فدوى طوقان ص ٧٠ .

وحولي من الذكريات الخوالي طيـوف تثيـر لهيـب الحنيـن
أخـاف تكـرّ عليهـا الليـالـي وتـدفـن تحـت ركـام السنيـن
فيبسـط قلبـي جنـاحَـيْ هـواه عليهـا ويحنـو حنـوَّ الضنيـن
وأنـتَ بـأعمـاق روحـي صـلاة يُسَبِّحُ باسمك روحي الأمين(١)

وتناديه مسترحمة إياه العودة ليطفىء ظمأ هذا القلب العطش.. فهل كان هذا الحب إلاّ سراباً تألق في صحراء حياتها ثم اختفى فجأة؟..

ومن أكثر الفترات خصوبةَ إنتاجٍ لدى فدوى طوقان تلك الفترة التي بدأت علاقتها بالناقد المصري الكبير أنور المعداوي، تلك العلاقة التي وإن بدأت بتبادل الرسائل بينهما، رسائل غنية مميزة بأسلوبها الجميل وبمواضيعها المثيرة.. ولكن انتهت بعلاقة حبّ مثالي عفيف طاهر أغنى شعرها بأجمل القصائد وأكثرها واقعية وشفافية.

ورغم هذا فهي تعلم حق العلمِ أن حُبَّها سيبقى أسير الظروف التي كانت تحياها، وسيكون شعرها تعبيراً عن كل فتيات جيلها:

كم فتاة رأت بشعري انتفاضات
رؤاها الحبيسة المكتومة
كان شعري مرآة كل فتاة
وأد الظلم روحها المحرومة(٢)

---

(١) نفس القصيدة ص ٧٢.
(٢) هو وهي ـ ديوان فدوى طوقان ص

لقد سجلت في هذه القصيدة قضية التقاليد الخانقة للحرية، وتطلعها المستمرّ للتحرر من هذا السجن بالفرار إلى دنيا الطموح والحب.

حياتي يا عباس حلم
مروع الأشباحِ
حلم أطبقت علي به جدران سجنٍ
داج رهيب النواحي
عشت فيه مخنوقة الروح ظمأى
لندى الفجر، للشذى، للنور
الهواء الثقيل يكتم أنفاسي وقيدي
يغل دفق شعوري
كلما ضقت بالظلام وبالكبت
تلفتُّ مثل طير مكبل
علَّ فجر الخلاص يلمح، لا شيء سوى الليل
ليل سجني المقفل

* * *

ووراء الجدران تصخب دنيا الانطلاقات
والحياة الجميلة
الحياة التي بملء اندفاعات خطاها
تسير نشوى غنية
لا تبالي بنا، تسير ولا تثني خطاها
مأساتنا الفردية..

وتعلمت كيف تختلط الثورة والبغض
في دم الظلم
وبأعماقي التربص يخفيه هدوئي
في صمته المسموم
أرقب اللحظة التي كم تطلعت إليها
في شوقي المكبوح
لحظة العتق والفرار إلى آفاق حريتي
ودنيا طموحي(١)

ثم تتحدث الشاعرة عن الحب ووظيفته بالنسبة لها فهي لا تملك من الحب إلا مشاعرها وأحاسيسها فهو المهرب الوحيد من سجنها. . . وهي تستقي أكثر معانيها من حزنها وأساها، فأصبح الحزن هو الينبوع الوحيد لكل أشعارها:

كان لي الحبُّ مهرباً أحتمي به
إليه أفر من مأساتي
كان دنيا في أفقها الرحب أسترجع حرْيتي
أحقق ذاتي
يا لقلبي الموتور كم رنحته
نشوة الانتقام من جلادي
وأنا في مشاعر الحب غرقى
وهو خلف الأبواب بالمرصاد

---

(١) هو وهي ـ ديوان فدوى طوقان ص ٢٩٨.

أبوسع السجون خنق الأحاسيس
وقتل الحياة في الأعماقِ؟
من يصد الشلال عن سيره الكاسح
عن اندفاعه الدَّفَّاقِ؟ . . [1]

في رسائل الأديب أنور المعداوي: نجد أنها مليئة بالحماس لها ولفنها كما أنها مليئة باللهفة والحنان عليها. . وبدأ الحب وكانت قصيدتها «في سفح عيبال» في نفس الفترة. . فكانت تعبيراً صادقاً عن الأمل والتفاؤل الذي بدأت تحسه الشاعرة، الفرح بعلاقتها الجديدة:

ها أنا وحدي في ثنايا الجبل كـأنـنـي أسطـورة تـائهـة
تهمسها الريح بإذن السفوح
هـا أنـا والفضـاء حـولـي غـزل والكـون عشـق، ورؤى وآلهـة
وأنت في قلبي وعينيَّ روح
يـومـىء لـي نحـو غـدٍ أخضـر
يغفـو الشـذا فـي دربـه المـزهـرِ
هـا أنـا وحـدي ومعـي ضبـوتـي تـرفّ فـي صـدري بـألفي جناح
وأنـت سـر فـي كيـانـي استتر
وكلمـا هتفـت مـن فـرحتـي أسأل: ما أنت؟ سمعت الرياح
تقول لي في مثل همس القدر
إنـك يـا حبـي نشيـد الخلـود
وإننـي صـداك عبـر الـوجـود.

---

(١) هو وهي ـ الديوان ص ٢٩٨.

وأرسـل «الأوف» غنـاءً حنـون يسيـل مـن روحـي وأوصـالـي
فتنتشي «بالأوف» حتى السفوح
لحنُ هـوىً، مـرتعشٌ بـالحنين سمعتــه يــومــاً «بعيبــال» . .
إذ أنت في السفح غريب الجروح!
فبــات وهـو اليــوم أغنيتــي
يحملنــي إليــك فــي وحــدتــي
هـل نلتقـي؟ أواه، هـذي أنـا ســوسنـة فتّـح أكمـامهـا
دفءُ الهـوى والأمـلُ المشـرقُ
تلـوي بهـا الـريـح، وتبقـى هنـا تستـودع السفـوح أحـلامهـا
وأنــت عطــر مسكــر يعبــقُ
فــي دمهـــا . . أوّاه هـــذي أنـــا
وحـدي هنـا فـي السفـح وحـدي هنـا! ! . [1]

ومن إحدى رسائله إليها وهي الرسالة الثالثة يقول المعداوي:
«ترى لو لم يحترق شعرك يا فدوى في وقدة العذاب، ترى هل كنت تستطيعين أن تقدمي إلينا مثل هذا الشعر. . صدقيني أن الحياة قد ظلمتك لتنصف الفنّ. . فنك هذا الذي يذكرني بالذهب، حين لا يصفو معدنه إلا وهو معروض لوهج النار. ولكن أين هم الذين وهبوا نعمة الشعور ليفرقوا بين الذهب والقصدير؟ لقد أنصفت الحياة فنك ولكنه مظلوم من الأحياء» [2] .

---

(١) في سفح عيبال ص ١١٦ ديوان فدوى طوقان.
(٢) صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر ـ رجاء النقاش ص ٨٢.

ثم في رسالة أخرى وهي الرسالة العاشرة يقول: «أنت قديسة لأنك عرفت الحب على حقيقته المثلى، وهو مناجاة بريئة، وهو سبحات نقية، وهو عاطفة مقدسة، وهو دعاء تحول في قيثارة الشعر إلى غناء..»[1].

وتنقطع رسائله فجأة دونما سبب ويسبب الانقطاع اضطراباً كبيراً لفدوى فماذا حصل حتى ينقطع اهتمامه بها وأين يذهب هذا الحنان فجأة.. وتبدأ حالة القلق عندها وترسل الرسائل لتعرف السبب ويجيئها جوابه:

«إن الموت هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يفرق بيننا.. ترى هل طمأنتك هذه العبارة الأخيرة على أنني لن أقول لك بعد اليوم وداعاً؟... إنها كلمة قلتها بالأمس وشرحت لك دوافعها النفسية.. قلتها ولم أكن أعلم أنها ستحدث كل هذا الأثر في حياتك.. ولشد ما أتوق اليوم إلى لقائك لأعتذر إليك.. ولأقول لك كما قلت بالأمس: لقد كنت أشفق عليك يا فدوى.. أشفق عليك من حبّ لا أمل فيه، حتى هذه الأمنية الصغيرة.. أمنية اللقاء بين إنسان وإنسانة يعيش أحدهما في القاهرة ويعيش الآخر في نابلس. وأقول لك أيضاً لقد كنت أحاول أن أجعلها فلسفة، بأن أتركك للزمن ليقدم إليك بيديه الحانيتين جرعة النسيان.. ولم أكن أعلم أن لك أنت الأخرى فلسفة حين قلت: إن أملك من وراء الحب هو الحب ذاته.. هو أن يجد الإنسان في هذه الحياة من يقول له إنك لن تقف وحدك، لأنني سأكون إلى جانبك:

---

(١) نفسه ص ٢٢٨.

بكل خلجة نفس وبكل خفقة قلب.. وبكل دفقة من دفقات الشعور. وتسألينني الرأي في هذه الفلسفة فأقول: إنني مؤمن بها لأنني أؤمن بالفن، الفن الذي يرتفع بالإنسانية من أرض المادة إلى سماء الروح»[(١)] ..

ومن صميم الحزن واللوعة، ومن الحنين الجارف إلى دفء الحياة بقرب الحبيب تصل صرختها إلى قلوبنا بعد أن نقرأ الوحشة والفراغ في حياتها بعد القطيعة فتقول:

عامٌ قريب
كانت حياتي قبله
شبحاً يدبّ على جديب
متعثراً بالصخر، بالأشواك
بالقدر الرهيب
حتى رآك
روحي تهلّ على كآبته
فتترعه يداك
فرحاً وإشعاعاً غريب

* * *

عام قصير
سرنا معاً فيه على دربي الوعير

---

(١) الرسالة السادسة عشرة للمعداوي/ كتاب صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر ـ رجاء النقاش.

جنباً إلى جنب، وملء عيوننا
دفء الشعور
والعاطفة
وإذا الحياة على صدى
خطواتنا المتآلفة
خضراء تورق في الصخور

* * *

ووقفت وحدي
في وحشة التوهان. في يتم الغريب
وقفت وحدي
تصطك روحي في فراغ الدرب من ذعر وبرد
وعلى فمي
إشراقةٌ ماتت. وفي قلبي
تنبؤ ملهمٍ
أني سأبقى العمر وحدي.

* * *

أمسك يدي
سر بي، غبار الأرض منعقدٌ على دنيا غدي
يعمي خطاي المجفلات على طريقي الموصد[١]
هذا الغبار

---

(١) الموصد: المغلق.

دوّامة دارت بها حولي
أعاصير القفار
تلوي بعمري المجهد[1]

* * *

لا تبعدِ!
وبقيت أصرخ من قرارة وحشتي:
لا تبعدِ!
فتبدد الريح النداء مع الصدى المتبدّد
وبقيت وحدي
حيرى، أدور، أصارع الدوامة الهوجاء
وحدي
عبر الطريق الموصد[2]

ومن جديد يعود الحبيب محملاً بالأشواق ليبدد الفراغ والوحشة.. وساعات الانتظار القلق لعل «همسة، نبأة» منه تأتيها..

وأطل وجهك مشرقاً من خلف عام
عام طويل ظلّ في عمري يدب كألف عام
عام ظللتُ أجرّه خلفي وأزحف في الظلام
وعواصف ثلجية تصطكُّ حولي والطريق
كانت تضيق كأنها أمل يضيق

---

(١) المجهد: المتعب.
(٢) دوامة الغبار.

ويضيع في تيه القتام[1]

* * *

عام طويل ظلَّ يفصلنا به بحر صموت
بحر دَجَتْ أمواجه وتجمّدت، بحر تموت
فيه الحياة وتغرق الخلجات في برد السكوت
وأنا على شطّ الأصمّ
أنا والفراغ وليل وهمي
أصغي لعل صدى يمر
بي، علَّ شيئاً منك، همسٌ، نبأةٌ،
شيئاً يمر
بي منك عبر مدى السكوت
لا شيء، إلا وطأة ثقلت وصمتٌ مستمر[2]

ثم تصل إلى ذروة الإحساس (فها هي الحياة تعود إلى حركتها كما البحر تدب فيه معجزة فترف فوق مياهه حمامة زرقاء حملت إليها البشارة بعودته. والحمامة في التراث الشعبي هي الطائر الذي بشر النبيَّ نوحاً بانتهاء الطوفان، وبعد أن تصف كيف حضنت الحمامة بفرح ونشوة تصوّر لقاءها به وغبطتها التي أنستها عذاب عام مر طويلاً وكأنه ألف عام)[3] . .

---

(١) القتام: الغبار.
(٢) العودة ـ ديوان فدوى طوقان ١٩٣ ـ ١٩٤.
(٣) دراسات تحليلية في الشعر العربي المعاصر ـ محي الدين صبحي ص ٢٠٥.

عامٌ ودبّت بعده في البحر معجزة الحياة
لم أدر كيف، هناك رفّت بغتة فوق المياه
وهنتْ حمامة
زرقاء، في طُهر السماء، هفت إليَّ على غمامه
وطوت جناحيها وفرَّت من يديّه
ورنت إليّه
وتنفست دفئاً وعطراً
وشممت فيها منك شيئاً هاجني وجداً وذكرى
فمضيت ألثم ريشها
وجعلت صدري عشها
وشعرت أنك عدت، أنك في الطريق
واجتاحني فرح الغريق
حضنتْه شطآن النجاه

* * *

وأطلَّ وجهك من بعيدِ
حلواً يرف على وجودي
ورأيت أحزاني تموت على تعانق راحتينا
وأضاء في فمك ابتسام
البسمة الجذلى التي أحببتها منذ التقينا
عادت تضيء كأنها قلب النهار
وتصب في نفسي فيشربها دمي
ويعبّها قلبي الظمي

ونسيت آلامي الكبار

ونسيت في فرح اللقاء عذاب عام

عام طويل ظلَّ في عمري يدب كألف عام[١]

(وهنا نلاحظ ما تكشفه لنا هذه القصيدة بوضوح من مثالية عاطفية لا تمت للحياة الواقعية بصلة وكأن هذا الحب في حياة فدوى طوقان وأنور المعداوي هو الحب الأول في حياة صبية وصبي صغيرين بريئين لا يعرفان من أمور العاطفة شيئاً سوى اللهفة والحنين، ويكفي أن نقرأ هذا البيت من قصيدة فدوى لنجد أمامنا تجسيداً لهذه المثالية العاطفية المتطرفة:

ورأيت أحزاني تموت على تعانق راحتينا

لقد اطمأن قلب الشاعرة وهدأت عواطفها وماتت أحزانها لمجرد العناق بين يدها ويد حبيبها.. ويا ليته كان عناقاً حقيقياً. لقد كان عناقاً بين اليدين في الخيال)[٢].

وكانت الرسالة السابعة عشرة من المعداوي إلى فدوى عام ١٩٥٤ آخر رسالة كتبها ولم ترد عليها وصممت على رفع جدار بينها وبينه بسبب انقطاعه في كل مرة عن المراسلة فقد ظنت (أنه يحب اللعب بعاطفتها تجاهه).

من رسالته الأخيرة يقول:

---

(١) العودة ـ فدوى طوقان الديوان ص ١٩٣.

(٢) صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر ـ رجاء النقاش ص ٢٨٨.

«ولكنني كنت محتاجاً إلى من يحمل لي مصباحاً ولو صغيراً لأستطيع كلما جئت إلى الجسر الكبير أن أراك» ويقول: «لقد كنت دائماً أنتظرك يا فدوى، ولكنه كان انتظاراً في الظلام عند ذلك الجسر الكبير الذي طلبت مني أن أمضي نحوه.. يا طالما ذهبت إليه وانتظرتك هناك، ولكن آه من ذلك الظلام الرهيب الذي كان يسلبني الرؤيا، رؤية كل شيء»[1].

في هذه الكلمات يشير المعداوي إلى قصيدة لفدوى كتبتها من وحي علاقتها العاطفية معه وهي قصيدة (وانتظرني):

حين تبدو الحياة في يومك المقفر مني
كئيبة مملولة
ويلحّ الشوق اللجوج فتدعوني ودوني -
مجاهل وبراري
وأماني شوامخ الأسوار
فامض نحو الجسر الكبير مع الذكرى
ورعشاتها العذاب الجميلة
ستراني هناك أمشي إلى جنبك
أنت استغراقتي وابتهالي
وأنا كنزك الذي تحتويه
بِيَدَيْ باخلٍ وحرص ضنين[2]

---

(١) صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر - رجاء النقاش ص ٣١٤.
(٢) ضنين: بخيل.

وتواريه عن فضول العيون
والأصيل الملوّن الحلو يطوينا ـ
حبيبين ناسجي آمال.

ويقول المعداوي في رسالته الأخيرة:

«كم ألح عليّ الشوق، وكم عدت للماضي، وكم عشت في الذكرى، وكم وكم وكم.. ولكني كنت محتاجاً إلى من يحمل إليَّ مصباحاً ولو صغيراً لأستطيع كلما جئت إلى الجسر الكبير أن أراك»[1].

وهذه إشارة إلى المقطع الأخير من قصيدتها:

هكذا كلما ألح عليك الشوق
عد للماضي، وعش في الذكرى
وأحيِ أيامنا ونحن على النهر
ونيسان ضاحك في الضفاف
راقص الظل رائع الأطياف
وانتظرني، غداً سيجمعنا الحبّ
شتيتين في حماه استقرا[2]

وانتهت قصة الحب بين فدوى طوقان وأنور المعداوي بالفشل ولكن الأدب قد اغتنى «فقد كتب المعداوي فيها أدباً جميلاً هو ما سجلته سطور رسائله ولأن فدوى طوقان قد كتبت في هذه القصة أروع

---

(١) صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر.
(٢) فدوى طوقان الديوان ـ وانتظرني ص ١٨٢.

قصائدها. . . فإضافة إلى الجمال الأدبي فقد ضمت رسائله مجموعة من الآراء النقدية الذكية الجريئة مما أعطى لهذه الرسائل قيمة موضوعية إلى جانب قيمتها الجمالية. . وهي بالإضافة إلى ذلك تلعب دوراً كبيراً في إلقاء الضوء على شعر فدوى طوقان وتساعدنا على فهم جانب هام من جوانب هذا الشعر الذي يحتل ولا شك مكانة كبيرة في أدبنا المعاصر»[1].

ها هو ديوانها الأول (كله مشاعر بكر وتفتحات صاحية على مشرق عمر جديد. . فيه الحبّ والرضى والعتب والسهاد والشكوى والاعتذار، ثم لوم الزمان والمجتمع والحياة مع تأكيد على سرمدية الحب وديمومة العاطفة. .

ولكن ذلك كله لا يمنع العلاقة من أن تنتهي وتظهر الشاعرة ثكلى تنوح على حبها الضائع وتتلمس أمكنة ذكرياتها)[2]:

اذهبي واعبري الصحارى إليه
فإذا ما احتواكِ بين يديه
ولمحت الأشواق في مقلتيه
مائجاتٍ أشعةً وظلالا
مفعماتٍ ضراعةً وابتهالا
فاحذري، لا تعبّري، لا تبوحي
لا تبيني تأثراً وانفعالا

(١) صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر ـ رجاء النقاش.
(٢) دراسات تحليلية في الشعر العربي المعاصر ـ محي الدين صبحي ١٤٩.

واكتمي عنه ما يزلزل روحي
منه واطوي هواي عن عينيه[1]

إنها بداية النجوى من الشاعرة لصورتها.

ثم في المقطع الثاني تطلب من الصورة أن تكتم هذا الحب عنه وأن تكون بكماء التعابير جامدة الملامح عند لقائه. فإذا نام الحبيب وسرح في عالم الحلم أن تنطلق الصورة إليه وتعانقه لتستقر في جفنيه ثم تنشده الشعر وتبثه النجوى عما يدور في قلب صاحبتها من أسىً ولهفة:

فإذا الليل سفّ منه الجناحُ
ومضت في انسراحها الأرواحُ
تتلاقى على مهاد الأثيرِ
عبر آفاق عالم مسحورِ
عالم الحلم، مسبح اللا شعورِ

* * *

فاسبقي أنت كل حلم إليهِ
واستقرّي هناك في جفنيه
عانقي روحه، ورفّي عليه

* * *

أنشديه شعري وغنّي لحوني

---

(١) (إلى صورة) ـ ديوان فدوى طوقان ص ٧٤.

في هواه،

بثيه كلّ شجوني

صوّري لهفتي له وحنيني

حدثيه عن صبوتي، عن جنوني

حدثيه. . حتى يلوح الصباحُ

وإذا ما أفاق من نومه تعود الصورة بكماء جامدة بلا تعبير. . لتحفظ سر الحب (فالغموض ساحر آسر) وليبقى هو بين الشك واليقين. .

فإذا قبَّل السنى عينيهِ

وصحا، لم يجد هناك لديه

غير «لا شيء» ماثلاً في يديه

وارجعي أنت صورةً بكماءَ

وجهها خامدٌ بلا تعبيرِ

ميّت القلب والهوى والشعور! . .

* * *

هكذا وليظل حبّي سراً

غامضاً،

إن للغموض لَسِحرا

آسراً، يجذب النفوس إليه

حيث تبقى مشدودة في يديه

ليس تقوى على الفكاك

فكوني

أنت مثله لديه عمقاً وغورا
هكذا، وليظلّ نهب الظنونِ
تائهاً بين شكه واليقينِ! . .[1]

في هذه القصيدة نجد كثيراً من الطباع الأنثوية عارية من كل قناع. . نجد خفر العذراء، وخوف المرأة من البوح. . كما نجد أن سرها يعذبها لكنها تتلذذ بهذا الألم. .

أما قصيدة «في محراب الأشواق»[2]:

فهي هيام على أطلال حب، ونشيج بصوت عذب، إنها بحث عن السعادة الضائعة عن كل لحظة قضياها معاً. . حتى المقعد الخالي يحنّ مرفقه إلى الحبيب. .

هذا مكانك، ههنا محراب أشواقي وحبّي
كم جئته والدمع، دمع الشوق مختلج بهدبي
كم جئته والذكريات تفيض من روحي وقلبي
يمددن حولي ظلهنَّ، وينتفضن بكل درب

* * *

هذا مكانك مثل روحي، فيه إحساس كئيب
متحسِّرٌ. . يصبو إلى الماضي، إلى الأمس الحبيب
متسائلٌ عن شاعرين، هواهما حلم غريب

---

(١) إلى صورة ـ ديوان فدوى طوقان.
(٢) ديوان فدوى طوقان ص ٨٤.

كم رنّحا بالشعر جوَّهما، ففاض جوى مهيب

* * *

هذا مكانك، أين أنت، وأين أطياف الفنون؟!
المقعد الخالي يحنُّ إليك مرفقه الحنون..
أسوان، يرمقني وقد أهويت أنشج في سكون
ومواجدي ملهوفة النيران، تهدر في جنون؟.

* * *

وأخيراً تضع تبعة عذابها على القدر وقيود المجتمع:

ذنبي؟ وما ذنبي ألا ويلاه من ظلم القيود!
ما حيلتي والغلُّ في عنقي على حبل الوريد
أواه؛ حتى أنت لم تنصف قلبي الشهيد؟!
أواه، حتى أنت تظلمني مع القدر العنيد؟!.

ولا شيء يخفف عن القلب المعذب المكسور إلا بقايا ذكريات من (صدى منغوم في أغوار الذات)..

لـم لا تعـود؟ أنـا هنـا وحـدي بهيكـل ذكـريـاتـي
وحدي، ولكني أحسُّك في دمي، في عاطفاتي
أصغي لصوتك، للصدى المنغوم في أغوار ذاتي
وأراك مـن حـولـي، وفـيَّ، ومـلء آفـاق حيـاتـي

* * *

في ديـوانهـا الثـانـي صـورة استسـلام المـرأة للحـب المكتشـف واستغراقها في غمرة التجربة التي أصبحت معروفة لديها..

إن ثقل المعرفة والواقع يمنحها طمأنينة تجعلها تهتف:

وجدتها، يا عاصفات اعصفي
وقنعي بالسحب وجه السماء..
ما شئت يا أيام دوري كما
قُدّر لي، مشمسة ضاحكة
أو جهمة حالكة(١)
فإن أنواريَ لا تنطفىء
وكل ما قد كان من ظلٍّ
يمتد مسودّاً على عمري
يلفه ليلاً على ليلِ
مضى، ثوى في هوّة الأمسِ
يوم اهتدت نفسي إلى نفسيَ..(٢)

ها هي ذي قد وجدت نفسها بعد طول ضياع وتشرد، واختفى اضطرابها فلتدر الأيام كيف شاءت مشمسة أو حالكة فإن نورها الداخلي لن ينطفىء بعد الآن، والليل الطويل الذي عاشته بعذابه وآلامه ذهب عندما عادت نفسها إلى نفسها..

فبحمل الحبيب في تجربتها الجديدة معنى الأمان والاستقرار، فتفيض أحاسيسها الهادئة، وتحس إحساس الأم تجاه طفلها الحبيب وتنسى.. تنسى الجراح والآلام، ولا يبقى سوى هذا الهوى الرقيق

---

(١) حالكة: شديدة السواد.
(٢) وجدتها.. ديوان فدوى طوقان ص ١٧٤.

الناعم..

أنا وحنيني البعيد إليك
ورائحة الليل والذكريات

* * *

طوانا هناك على الشطّ ليل
نديّ الغلائل، شفّ مضيء
وأنت بجنبي طفلي الحبيب
تنفض قصة عمر مليء
تحدثني عن حياة الكفاح
وخوض الردى
وكان الصدى
مثيراً، وكانت هناك جراح...

* * *

تلمست تلك الجراح الغوالي
وشيء بصدري كحسّ الأمومة
تلمستها وحنوت عليها
بروحي الرؤوم ونفسي الرحيمة
وفي غمرة الحب مرّت يدي
بدفق الحنان
ودفء الأمان
على رعشات الجبين الندي

ووسدت رأسك قلباً سخيّ
العطاء، ولفّ النقاء كلينا
وغنّت بأعيننا العاطفات
وابتسم الحب في شفتينا
ومرّ نسيم طريٌّ علينا

* * *

وكان هوانا جميلاً كهذا
الوجود، عنيفاً كعنف الحياة
وكنا معاً نغماً واحداً
عميق الرنين فسيحاً مداه
نموت ولا يتلاشى صداه
ويبقى يدور
يلفّ الدهور
يبارك سحر الهوى والحياة[1]

إن حبها قدر مفروض عليها وسجن اختارته هي بنفسها سجن بنته من الأمنيات الصغيرة الجميلة، ومن ذكريات مرت، ومن عاطفات تملأ الحياة أملاً وسعادة. وحين تحاول الهرب من هذا القبض تجد الخلاص مستحيلاً، وتلقي سلاحها لتضم يد الحبيب بين يديها لا فرار.. لا

---

(١) ذكريات الديوان ـ ١٧٨.

هرب.. أين الهرب والحب قدر مكتوب لا انعتاق منه..

إلى أين أهرب منك وتهرب مني
إلى أين أمضي وتمضي
ونحن نعيش بسجنٍ
من العشقِ.
سجن بنيناه نحن اختيارا
ورحنا يداً في يدٍ
نرسّخ في الأرض أركانه
ونعلي ونرفع جدرانه
من العشق شدناه، من لبنات الأماني
ورسم خطوط الغد..
ومن ألف رائحةٍ ألف لون،
من الذكريات
من العاطفات..

* * *

إلى أين أهرب منك وتهرب مني
إلى أين أمضي وتمضي
ونحن نعيش بسجن
نحاول منه انعتاقاً عسانا
نلاقي الخلاص كلانا
إلى أن تخور قوانا
وننهار عجزاً، وتبقى أمامي

وأبقى أمامك وجه لوجهِ
وفي شفتينا
لهاث أوام،
وفي وجنتينا
ظلال ضرام
ونلقي السلاح وتمضي يدانا
تلفّ هوانا
بحبٍّ وعطفٍ تلفّ هوانا
ونفنى رضىً ونذوب حنانا

* * *

سدى ومحال
سدى لا انعتاق لنا لا انفصال
محالٌ حبيبي محال(١)

(وحين يتوصل رجل إلى امتلاك أعماق المرأة وهواجسها ويدخل ما بينها وبين نفسها، ويصبح قبلة نجواها في الضيق والفرح.. حينذاك يصبح هذا الرجل ـ بكل شخصيته ـ سرّاً ذاتياً من أسرار المرأة.. إن أنانية المرأة تمتلكه وتتمثله وتخفيه في أحشائها لأنه ليس العشيق فقط بل هو الابن أيضاً.. هو جزء من عالمها الأنثوي السرّي الذي لا يعرفه أحد إلا أدوات أنوثتها وفتنتها من مشط ومرآة، أما الناس فيجهلونه كل

---

(١) الانفصال ـ ديوان فدوى طوقان ص ١٨٦.

الجهل:)[1]

هم يحسبون لقاءنا محض صدفة
هل كان صدفة
من قال؟ من أين هم يعلمون
أنت الذي يعلم
وأحمر الشفاه
والعطر والمرآة
وزينتي هي التي تعلم
لا هو[2]

إنها تلخص ما تريده في أبيات بسيطة لكلمات مختصرة هدفها في الحياة فهي قد خلقت لتلبي نداء قلبها ولتضع كنوز حياتها كلها بين يدي الحبيب:

نادني من آخر الدنيا ألبي
كل درب لك يفضي فهو دربي
يا حبيبي أنت تحيا لتنادي
يا حبيبي أنا أحيا لألبي
صوت حبي
أنت حبي
أنت دنيا ملء قلبي

(١) دراسات تحليلية في الشعر العربي المعاصر ـ محي الدين صبحي.
(٢) فدوى طوقان ـ ١٩٠ ـ هل كان صدفة.

كلما ناديتني جئت إليك
بكنوزي كلها ملك يديك
بينابيعي، بأثماري، بخصبي
يا حبيبي[1]

في ديوانها الثالث: قد أصبحت ترى بعينين، وصارت تقيس المسافة من الجانبين لقد عرفت الفكر ونقيضها ومن الطرف والنقيض تتولد حياة جديدة ومعرفة حقيقية. وقد تاقت الشاعرة إلى الحب فغنته ثم استسلمت لتجاربه، وأخيراً تجاوزته فغرقت في غمار النسيان، وعامت في أمواج الاشمئزاز والكراهية.. ثم عادت إلى نفسها وهي تنظر إلى الحياة ببسمة سخرية تتعالى بها على العواطف العابرة والأحاسيس الطارئة. لكنها لم تنهزم بل عادت إلى الحياة وهي أعمق غوراً وأبعد قراراً مما كانت عليه. إن حيويتها ودفق عواطفها أكبر من كل جحود.. ترى هل نعرف إلى أي قرار غارت بها تجربتها.. وكيف عادت تطفو وتلامس الهواء والنور.. إنها تتألم ولكن دون تشنج أو حنين.. تتحدث عن الحبّ الماضي كعلاقة عابرة يستطيع أن يصنعها اثنان مخدوعان بالوهم:

كان وهماً، نحن أعطيناه شكلاً
وحياه
ثم رويّناه لوناً
وعبير

---

(١) كلما ناديتني ـ ديوان فدوى طوقان ص ٢٠٧.

وعشقناه، عشقنا وَهْمنا الغالي الغرير
وحصرنا الشوق في دنيا رؤاه[1]

* * *

إنه وهم تغذى من الشعور والخيال وتربى حاملاً الأمنيات والأحلام الكثيرة.. فترة قصيرة وتلاشى ولم يبقَ منه إلا بعض ذكرى عششت في روح الشاعرة وأرّقت لياليها فإنها لا تعدو اليوم إلا صورة جثة ووريت في التراب:

فترةً، ثم تلاشى ذات ليلة
حينما هبت رياحْ
ذات عصفٍ هائج، ذات اجتياح
وتلاشى ما تبقى منه إلا
بعض ذكرى مُثقلَهْ
بالجراح

* * *

بعض ذكرى منه هيأنا لها نعشاً ـ
وقبرا
ودفناها بصمتٍ
ونفحناها بعبره
وتركنا عندها آخر زهره

---

(١) أغنية البجعة ـ الديوان ص ٣١٥.

عبقت عبر جواء الموت شِعرا[(١)]

ولعل الواقع يؤيد هذا التصور، لقد سقطت صورته من نفسها وراحت تفتش عن بقايا صور في داخلها فما وجدت إلا الفراغ وسؤالاً غريباً: (هل أحببتك يوماً؟ وكيف؟) (وكيف تلاشى الهوى واندثر).

نسيان[(٢)]

لقيتك أمسِ، ولكنّ عينيَّ
أنكرتاك، فلم تعرفاك..
ورحت أسائل قلبيَ عنكَ
وهل مرَّ حقاً عليه هواك
تلمست جدرانه علّ فيها
بقايا ظلالٍ، بقايا صور..
فما نبضت من غرامك ذكرى
هناك، ولا لاح منه أثر

* * *

أحقاً أحببتك يوماً؟ وكيف؟
أم كنت طيفاً بحلمٍ عبر
وهب كنت طيفاً تعشقتُهُ

(١) أغنية البجعة ـ الديوان ص ٣١٥.
(٢) ديوان فدوى طوقان ص ٣١٨ نسيان.

فكيف تلاشى الهوى واندثر
أما من بقايا؟
أما من أثر؟

* * *

تذكرتُ، كنتُ رفعتك يوماً
إلى قممي الشامخات المضيئة
وقد ضاع وجهك بين زحامِ ـ
الوجوه بأفق حياتي المليئة.

(أما تهاوي القيم فلم يعد فاجعة تفجر فيها حس المأساة وينابيع الدمع إنها تستقبل الخيانة بضحكة، وترتكب الخيانة وهي تضحك فإما أنها يئست، وإما أن معرفتها بلغت من الكثافة حداً أمحت منه الدهشة والمفاجأة)[1] ؟.

وتسأل أين الوفاء؟
أما من وفاء؟
وأضحك في وجهك المتجهم
أسأل مثلك أين الوفاء؟ . .[2]

إنها دائماً مستعدة لتمد ذراعيها للمستقبل بثقة فطرية ويقين عفوي بأنه سوف يحمل إليها الحب والرفاه.

---

(١) دراسات تحليلية في الشعر العربي المعاصر ـ محي الدين صبحي.
(٢) أسطورة الوفاء ص ٣٣٨ الديوان.

أعطنا حباً، فبالحب كنوز الخير فينا تتفجر

إن أنوثتها المعطاء لا تألف الكره ولا تسيغ الانفراد إن الحب يفيض من وجودها.. من كل كيانها.. ويبعثها من جديد.. فهي تحتاج إلى الحب لتعطي لا لتأخذ لأن الحب يفجر أنوثتها..

القصيدة الأولى[1]

لا، لا تسلني، لن أبوح به
سيظلّ حبك سرّ أغواري
أعطيه من ذاتي، وأمنحه
ما عشت عاطفتي وإيثاري
أسقيه من عطري، أوسده
صدري، أناغيه بأشعاري
لهواك كل مواسمي امتلأت
وسخت بفيض جنىً وأزهار
لهواك آفاق مرصّعةٌ
يزهو السنا في صدرها العاري
لهواك هذا الليل أسهره
نشوى، أبيح الليل أسراري
ها أنت، ها أنا،

---

(١) القصيدة الأولى ٣٣٢ ـ الديوان.

قصةٌ بدأت
مكتوبةٌ في سفر أقدراي

. . . . . .

لا، لا تسلني، لن أبوح به
سيظلّ حبك سرّ أسراري.

وليس للقرب أو البعد من قيمة أو تأثير بالنسبة لحبها..

غبتَ؟ ولو غبتَ، فما زال في
دمي عبيرٌ منك يرويني
يخصبني، يملأ كوني غِنى
يمنحني أجمل ما في الدّنى
الشعرَ، والحلمَ، ودفءَ المنى

إنها تتمثل لنا كإنسانة لا تعرف الوهن ولا يتسرب إلى كيانها الضعف، دائماً على استعداد لأن تبدأ من جديد..

تعود لي، تعود لي في غدٍ
وترجع الدرب تناديني
فأصحبُ الشمس إلى موعدي
أصحبها وفي دمي يقظة
يبعثها الحبّ فتعطيني
تذوّقَ الحياةِ، حِسَّ الجمالِ
الوهجَ الضاحك فوق التلالِ
الخُضرة الريّا بحضن الجبالِ

وتؤكد الشاعرة أنها لو عادت صغيرة فإنها تعود إلى نفس حياتها القديمة، وترتكب نفس الحماقات لتواجه نفس المصير.

لا مفر(١)

لو أني رجعتُ صغيرة
لو أني رجعتُ وملء يديه
تجارب عمري وخبراته
وما لقنتني الحياة الكبيرة
وما علمتني السنون الكثيرة
لعدت برغمي لأخطائيه
ونفس حماقاتيه
لكنت أواجه نفس المصير
ونفس الضياع
وذات الحبال تروح تلفّ على كتفيه
وتمضي تحزُّ وتقسو عليّه
وما من خلاصٍ، وما من مفرّ

* * *

هناك وراء الوراء، بأعماق ذاتي
هنالك يرسب شيء خفيٌّ

---

(١) ديوان فدوى طوقان ص ٣٥٦ قصيدة لا مفر.

يظلّ خفياً ولا شكلَ لَهْ
يظلّ قوياً ولا لون لَهْ
يوجّه سيري، يخط دروبي
ويرفع بين يديّ صليبي
ويحدو خطاي إلى الجلجلة!.

إنها الجبرية التي تكمن في داخل الذات، هي جزء لا ينفصل عن النفس..

في قصيدة «الكلمة والتجربة» تستعرض الشاعرة كيف تولد القصيدة منذ أن تكون كلمة «حب» هي الموحي الأول والسريع فتعيش في قلب الشاعر فيحسها نغمة تنساب في لين وتتحول أغنية في لياليه الموحشات الطويلة... وتولد التجربة الحلوة ثم فجأة تعرى الكلمة الناعمة من ظلها الذي أسبغه الشاعر سحراً.. وتنهار.. وتعود الحيرة من جديدة.. ويعود التساؤل عن الأشواق الرائعة والأحلام الجميلة...

الكلمة والتجربة(١)

الحبّ، يا نعومَةَ الكلمهْ
يا سحرها، ويا جمال الجمال

---

(١) فدوى طوقان ـ الكلمة والتجربة ص ٣٦٥.

من قبل أن تحرقنا التجربة
إذ مضى يلفظها الآخرون
رفّتْ على صحرائنا نسمَة
وأغدقَتْ في بالنا نعمه
وانكشفت للخيال
مرابعٌ سحريةٌ مخصبة
ينعمُ في غبطتها العاشقون

* * *

وفي الليالي الموحشات الطوال
نلمحها نجمه
تشعّ في الأفق الخفيّ البعيد
تومىء في صمتٍ إلى عالمٍ
ضاحٍ جديد
تحلو المنى فيه، وتسخو الوعود
ويزهر الحلمُ، ويزهو الوجود

* * *

وذات يوم تقبل التجربة
غنيةً معطاء
بنظرة تطرق أبوابنا
تطرقها بنظرة حلوة
تومض من عينين معبودتين
وهاجتين

تطرقها بضحكة طائره
ساخنة، بنكتة بارعه
ذكية، بلفتة من جبين
غض، فتيّ، زئبقي الرواء
فتنفتح الأذرع في نشوه
نعانق التجربة الحلوه
نحقق الحلم الذي أوغلت
رؤاه في أعماق أعماقنا

* * *

يوم، وتنهار سماواتنا
وتنتهي الدنيا التي أمرعت
وأينعت فيها خيالاتنا..

ورغم كل هذا العياء فإننا لا نستطيع أن نتخيل حياتنا فارغة، ونشعر بالتعاسة والفقر «إذا انطوى العيش ولم تحترق أرواحنا في لهبِ التجربة».

وهي تؤكد للحبيب أنه سوف يذكرها بعد عشرين عاماً من هواها.. وأنه سوف يجد في شيخوخته شبابه باقياً في صحائف شعرها:

«بعد عشرين عاماً»[1]

غداً، في ليالي الشتاء الطوال
الكئيبة، عبر ازدحام السنين
وقد يبس الزنبق الأبيض الغض
وارفضّ بين غضون الجبين
وتثقل هذي العيون الغوالي
ويذبل هذا الشباب النضير
هنالك سوف تعيدك للأمسِ
مهما نأى لفتة الذكريات
وتلقى فتىً أسكرَتْه الحياةُ
فلوّن بالطيش أحلامها
هناك سيمثل في ناظريك
الكليلين ظلّ لطيفِ فتاة
وتبسم أنت، وفي نهدة
تقول: سقى الله أيامها!.

* * *

وتأخذ ديوان شعر قديمٍ
لشاعرةٍ غيبتها القبور
وتقرأ أبياته فتشمُّ

---

(١) ص ٣٧١ الديوان.

عبير شبابك بين السطور
سيلقى شبابك في كل سطرٍ
نديّ الحواشي، طريّاً، غرير
وفي كل حرفٍ تعود الحياة
لأشياء كنتَ بها تزدهي
هنالك تعلم أن ربيعك
باقٍ بشعري فما ينتهي.

إن طبيعة الشاعرة الانفعالية وحيويتها يفوقان كل هزيمة فهي تواصل المسير بعد كل فشل. (في البدء كانت تلقي التبعة على المجتمع.. لكنها بعد ذلك تستلم زمام المبادرة فتبدأ بالمحاكمة والتنفيذ، وتعلن أن الرجل لا يستحقّ أن ترفعه إلى قممها الشامخات المضيئة لذلك لا تبدو منها بادرة أسف.. ويتلون حزنها من الشكوى إلى العتاب المرّ.. ثم إن علاقاتها بدأت تنقطع دون سبب مباشر.. هناك سبب كبيرة يفوق إرادتها ويحطم مساعي الطرفين في الإبقاء على الصلة.. ذلك هو الملل[1]:

لا تقل إن الملال
لم يلففنا وإن اليأس لم يلقِ علينا
ظلّه القاتم، لم يبقِ لدينا

(١) دراسات تحليلية في الشعر العربي المعاصر ـ محي الدين صبحي ص ١٨٩ ـ ١٩٠.

قبساً يطفو على أحلامنا[1]

* * *

وحين يقبل السأم يستشعر الإنسان ضعفه ويرى عجز الآخرين عن انتشاله، فيكتشف أنهم في مثل ضعفه وحيرته، إنه الفراغ وعدم القدرة على العطاء.. إنها السلبية.. فعندما لا يستطيع الحب أن يبني، فإنه حب فاشل حكم عليه بالموت.. إنه مجرد «استغاثات غريق بغريق»..

الهوى كان ملاذاً وهروب
من ضياعي وضياعك
كان لاستقرار نفس لقيت نفساً وروحِ
عانقت روحاً، لإرساء قلوب

* * *

الهوى كان لنبني ولنعطي
خير ما فينا
لا ليفنينا
ويحيل النور والخصب ظلاماً ورماد
في أغانينا

* * *

انتهينا يا رفيقي
حبنا كان استغاثات غريق بغريق

---

(١) القصيدة الأخيرة ص ٤٠٣.

لم تكن تملك لي شيئاً ولا كان لديّ
لك شيء . . .

* * *

أنت تدري. لا تسل عن حبنا
نحن حاولنا ولكنّا فشلنا
أسفاً، ماذا غنمنا؟
غير غصّات أسانا وجراح الأغنيات؟[1]

ورغم قصائد الحب الكثيرة . . ورغم «الأغاني الناعمات الحنون» تحس فجأة بأن هذا الحبيب غير جدير بالحب وأن الوقت الضائع هو هذا الوقت الذي نظن الحب فيه حقيقة فيكون سراباً ويكون الندم . . الندم الصادر من أعماق الجرح . .

كم يسألون
لمن ترى تنشدين
هذه الأغاني الناعمات الحنون
دافئةً مشرقة كالضياء
مثقلةً بالعطاء
ومن هواك الكبير
هذا الذي تسفحين
وتبذلين

(١) القصيدة الأخيرة ديوان فدوى طوقان ص ٤٠٣ عام ١٩٦٠ .

له كنوز الشعور
من ذاتك المليئة الخيِّرة
من روحك النضيرة المزهرة
لعله أطيب إنسانِ
لعله أجدر إنسانِ
بكل هذا البذل، هذا السخاء

* * *

وأخفض الطرف وأبقى على
صمتي المريب
غامضة لا أجيب

* * *

لكن صوتاً ساخراً في ألم
منبعثاً من قلب جرح الندم
ينصبُّ في أغواري المبهمة
مردداً في غنّة مفعمة
بالهزء، بالضحك الحزين المرير
لعله أطيب إنسان
لعله أجدر إنسان
بكل هذا البذل هذا السخاء

* * *

واخجلي!

واخجلي لو أنهم يعلمون
ما أنت أو من تكون.

«كل هذه الدلائل تشير إلى انعطاف حقيقي في حياة الشاعرة بأفكارها وآمالها. . ومن ثم بشعورها وشعرها. . إن شعرها يصور امرأةً لم يهزمها رجل، ولكن الحياة جرحتها بالعبث الكامن وراء كل تجربة. . إنها أصبحت ضائعة عائمة في بحر صاخب لكن عطاء قلبها أكبر من غدر الأحبة وتلون المشاعر. . فإيمانها بالحب محور وجودها لأنها تعرف كيف تخلق الفرح لتمحو به المرارة والأسى وحتى السأم. إنها لم تستجب للسأم لأنها لا تستطيع الحياة دون أخذ وعطاء. . ذلك هو قدرها. . .»[1].

* * *

---

(١) دراسات تحليلية في الشعر العربي المعاصر ـ محي الدين صبحي.

الموت، والرثاء
عند فدوى طوقان

للموت معانٍ كثيرة تختلف من إنسان إلى آخر وللموت في مفهوم شعراء الأرض المحتلة معنىً آخر . .

«الموت، في شعر المقاومة، مرحلة لا بد منها للوصول إلى ما بعد الموت، إنه الواقع الذي فرض على أبناء فلسطين منفيين أم لا يزالون في ديارهم محاصرين وهو الحزن والعذاب والنفي والسجن والفقر والجوع والفراغ والضجر وكل المعاني التي تنطلق من واقع النكبة العربية في فلسطين، وتنصب في أتون الوغى للتخلص من هذه النكبة»[١] .

فما هو الموت بالنسبة لفدوى طوقان؟ . . وكيف ومتى بدأت

---

(١) «الموت والحياة في شعر المقاومة» ياسين الأيوبي. ٢١٠ صفحات من القياس الكبير إلى فهرس الأعلام والصحف والأماكن والمصادر ـ دار الرائد العربي ـ بيروت ص ٤٠ .

التفكير به؟.. بدأت فكرة جديدة تراودها لعالم جديد.. فالموت يحتضن كل وجود الإنسان ويستأثر بجسده وعواطفه.. وهذه مناسبة تتيح لها أن تفكر بجسدها وأحاسيسها.. وبأنها ستهب نفسها لأول زائر يتناوله وهو هنا الموت.. لذلك تناجيه مناجاة الحبيب المجهول:

آه.. يا موت! أترى ما أنت؟ قاسٍ أم حنون
أبشوشٌ أنت أم جهمٌ؟ وفيٌّ أم خؤون؟
يا ترى من أيِّ آفاقٍ ستنقضُّ عليّه؟
يا ترى ما كُنه كأسٍ سوف تزجيها إليّه؟
قل، أَبِن، ما لونهَا؟ ما طعمها؟ كيف تكون؟[1]

إن الموت راحة للجسد المتعب عندما تضمه الأرض كمهد هادىء بلا شعور ولا انفعالات.

كلّه يأكل، لا يشبع، من جسمي المذابِ
من جفوني، من شغافي، من عروقي، من إهابي
وأنا في ضجعتي الكبرى وحضن الأرض مهدي
لا شعورٌ، لا انفعالات، ولا نبضات وجدِ
جثة تنحل في صمتٍ، لتفنى في التراب[2]

ولكن ورغم هذه الراحة الجسدية.. أين تذهب الروح؟ ما مصيرها؟.. هل تنجو من العدم وتخلد عبر الدهور؟ إنها الحيرة نفسها دائماً.. من أين البداية، وإلى أين ننتهي؟...

---

(١) خريف ومساء ـ ديوان فدوى طوقان ص ١٣.
(٢) نفس القصيدة.

ليت شعري، ما مصير الروح، والجسمُ هباءُ؟!
أتراها سوف تبلى ويلاشيها الفناء؟
أم تراها سوف تنجو من دياجير العدمْ..
حيث تمضي حرّةً خالدةً عبر السُّدُمْ..
وبساط النور مرقاها، ومأواها السماءُ؟!.

* * *

حيرةٌ حائرةٌ كم خالطت ظنّي وهجسي
عكست ألوانها السود على فكري وحسي
كم تطلعت وكم ساءلت: من أين ابتدائي؟
ولكم ناديت بالغيب: إلى أين انتهائي؟
قلقٌ شوَّشَ في نفسي طمأنينة نفسي!.(1)

وهي، تتمنى الفناء حتى وهي في أجمل لحظاتها بين الطبيعة الجميلة التي أحبتها دائماً وكأن الفناء والموت مع ما نحبه هو قمة سعادة الحياة!..

أوّاه لو أفنى هنا في السفح، في السفح المديد.
في العشب، في تلك الصخور البيض، في الشفق البعيد.
في كوكب الراعي يشعّ هناك، في القمر الوصيد..
أواه، لو أفنى، كما أشتاق، في كل الوجود!.(2)

(1) خريف ومساء ديوان فدوى طوقان ص ١٣.
(2) مع المروج ـ ديوان فدوى طوقان ص ٩.

إنها بكل رقة إحساس وشعور فياض تصف قصة موت فراشة عاشت عمرها بين الزنبق وأنسام الربى ثم فجأة في «فوران الصبا» يأتيها الموت المريعُ وحيدة لا تجد من يشيعها ولا دمعة تبكيها.. وهنا تبكيها الشاعرة بقصيدة رقيقة حزينة وتتذكر نفسها فهل يا ترى ستجد يوماً من يبكيها أو يذكرها؟..

أختاه لا تأسي فهذي أنا ... أبكيك بالشعر الحنون الرقيق
قد أنطوي مثلك منسيةً ... لا صاحبٌ يذكرني أو رفيق
أواه: ما أقسى الردى ينتهي ... بنا إلى كهف الفناء السحيق! (١)

إن الموت يخلصها من جسدها وهي تتمنى أن تدفن في ظل زيتونة:

جذورها تمتصُّ من هيكلي ... ولم يزل بعدُ طرياً رطيب
تعبُّ من قلبي أنواره ... ومنه تستلهم سر اللهيب

«إن فكرة الدفن ليست أكثر من رمز جنسي قد يحمل معنى الهروب من الجسد، وقد يحمل معنى الاستقرار في حياة رتيبة أما شجرة الزيتون بجمالها وثمرها، بزيتها وخضرتها الدائمة وحياتها الطويلة فهي الحياة التي تقابل الموت. وهي الخلود مقابل الفناء وهي الأخذ مقابل العطاء.. إن اللقاء بين الجسد وشجرة الزيتون يحمل كل الخصب والتجدد.. فيه معنى البعث: الشجرة تمتصّ الجسد، والجسد

---

(١) الشاعرة والفراشة ـ ديوان طوقان ص ١٨.

يجعل الشجرة تزدهر[1] . .

حتى إذا يا خالقي أفعمت عناصري أعصابها والجذور

انتفضت تهتزُّ أوراقها من وقدة الحسّ ووهج الشعور

وأفرعت غيناء فينانة مما تروّت من رحيق الحياة

نشوى بهذا البعث ما تأتلي تذكر حلماً قد تلاشت رؤاه[2]

وهي تستعرض عناصر حياتها في أكثر من قصيدة وتذكر فجائعها بأركان أسرتها: أبيها وأخيها وتبث الشعر ضيقها بوحدتها، فتظهر من خلال الشعر طفلة تحن إلى أهلها، ومراهقة تتحسر على شبابها، وتؤمن أنها ستعيش محرومة، وتموت دون أن يبقى بعدها إلا أصداء الحرمان. . تقول:

حياتي دموع
وقلب ولوع
وشوق، وديوان شعر، وعودْ
حياتي، حياتي أسىً كلّها
إذا ما تلاشى غداً ظلّها
سيبقى على الأرض منه صدى
يردد صوتي هنا منشداً:
حياتي دموع
وقلب ولوع

(١) دراسات تحليلية في الشعر العربي المعاصر ص ١٦٦ ـ ١٦٧ .
(٢) أوهام في الزيتون ـ ديوان فدوى طوقان ص ٢٣ .

وشوق، وديوان شعر، وعود.

* * *

في لحظة تذكر الموت الذي خطف أحباء لها ولا يبقى سوى الدموع في عالم جاحد..

بليل الشجون
وعمق السكون
تمر أمامي كحلم سرى
طيوف أحبّاي تحت الثرى
فترْعجُ ناريَ خلف الرمادِ
ويُغرق سيل الدموع وسادي
دموع الحنين
إلى راحلين
مضوا وطواهم ظلام اللحود

* * *

بقلبي اليتيم
تنادي كلومي
أطلّ بروحك يا والدي
لتنظر من أفقك الخالد
فموتك ذلٌّ لنا أي ذلّ
ونحن هنا بين أفعى وصل
ونفث سموم
وكيد خصوم

بدنيا العقوق، بدنيا الجحود[1] .

وليس الأب وحده بل هناك الأخ، . . نبع الحنان الخالد الذي ما تزال تذكره في كل لحظات وحدتها وحزنها فقد كان «الضياء» لعينيها وقلبها . .

وفي ليل سهدي
يحرّك وجدي
أخٌ كان نبع حنانٍ وحبّ
وكان الضياء لعيني وقلبي
وهبّت رياح الردى العاتية
وأطفأت الشعلة الغالية
وأصبحت وحدي
ولا نور يهدي
ألجلج حيرى بهذا الوجود[2]

* * *

وفي قصيدة رثاء لأخيها نمر طوقان . . تخبرنا كيف جاءها نبأ موته عندما كانت في جامعة اوكسفورد البريطانية . . قالت :

«وارتجفت مثلوجةً أصابعي على
وريقةِ البريدْ

---

(١) حياة ـ ديوان فدوى طوقان ص ٤٦ .
(٢) حياة ص ٤٦ ـ ديوان فدوى طوقان .

هم يكذبون
هم يكذبون
بل أنتِ تحلمينْ، تحلمينْ
استيقظي، حلمٌ ثقيلٌ لا يُطاق
وحدّقتْ عيناي في الأشياء
وامتدّتْ يدي
تلامس الخوانَ والكتابَ والأوراق
استيقظي، حلمٌ ثقيل لا يطاق
وحدّقت عيناي في وريقةِ البريدِ ـ
من جديد
يا نمر، لا يا نمر، لا يا نمر»

هكذا يجتاح الموت الأحياءَ العقلاءَ والأصحاءَ وتتبع فدوى الحديث بعتاب لا يخلو من الوجع:

«يا نمر، يا حبيب أختك الكسيرة الجناحْ
يا نمر، يا جرحاً جديداً غار في
قلبي المغشّى بالجراحْ
أهكذا بلا وداعٍ يا حبيبنا ويا
أميرنا الجميل
لا قبلة على طراوة الخدّين والجبين
لا نظرة أخيرة نحملها زاداً لنا
في وحشة الفراق
يا نمر، يا حبيبنا ويا أميرنا لو أنه

فراقُ أعوام حَملنا ثقلَه
لكنه فراقُ عمْر
لكنه فراق عمْر»

بعد هذا العتاب المرير تحتج على الموت الغاشم الغدار كيف يخطف أحباءها الواحد تلو الآخر.. ثم تنادي ربها أن يظهر لتبثه شكواها أفليس هو (لطيف بعباده).

«وهِمت في الدروبْ
غريبة في بلدٍ غريبْ
أحملُ ثقلاً لا تطيقه الجبال
أواه يا جنون هذه الحياة والأقدار
بغير حكمة يموت
بغير حكمة يموت
يا موتُ يا غشوم، يا غدّار
تخطفهم أحبتي وإخوتي
أحبتي وإخوتي زهر الرياض ـ
لؤلؤ المحار
أحبتي وإخوتي الشموس والأقمار
تخطفهم في عز عنفوانهم
في روعة انطلاقهم إلى القمم
يا موت يا مجنون يا أعمى العيون ـ
يا أصمّ
يا قاصماً ظهري الضعيف لي لديكَ ـ

ألف ثار، ألف ثار
وأنت يا من قيل عنه إنه هناك
حانٍ لطيف بالعباد
حانٍ لطيف بالعباد؟ أين أنت
لا أراك
دعني أراك كي أقول إنه هناك»[1]

وتصف الشاعرة حزنها الذي فجّر ينابيع الدموع وكهوف الوجع والقلق تقول:

«حزينة أنا، حزينة تفجّري
يا نبعةَ الدموع
يا فَرجَ المكروب يا سخيةَ العطاء
تفجري من كهفكِ السحيق، كهْف الحزن ـ
والظلام والأسى الوجيع
يا نبعةً بملح مائها
قد جُبِلت أَرض الشجا والموت والشقاء»

ولأنها نبتُ عائلة كريمة لم تنسَ أن تعزي أمها التي أعطت بلادها «أغلى اللآلىء وأعزها» وتقف على خاطرها وتهدىء من روعها قالت:

«يا أمّ عائدٌ إليك ابنُكِ الحبيب
تزفُّه عرائس البحارِ في طراوةِ ـ

(١) مرثاة إلى نمر ص ٤٢٠ ـ ديوان فدوى طوقان.

الصباحِ
تزفُّه مشغوفةً بكنزها الثمين
لؤلؤة ما ضمَّ قلب البحر يوماً
مثلها بين اللآل
لؤلؤة تعزُّ في الرجال
أعطيتِها يوماً بلادي، كمْ وكمْ
أعطيتِ يا أمي بلادي من لآل
أراكِ من هنا تفتحين
للعائد الحبيبِ صدرَكِ الرحيبْ
أرى محيّاكِ الضحوكَ مشرقاً ـ
ببهجة اللقاء
وفرحةِ الحبيب بالحبيبْ
فلتنعمي، أما الدموع والجراح
فهي لنا، خلي لنا الدموع والجراح
وجهْشَة النديب:
وا فجيعتاه!»

إنها من أجمل قصائد الرثاء فهي ليس فيها انهيار عصبي ولا نفسية محطّمة ولا حزن بالوكالة، ولا إقبال على الانتحار، وإنما فيها عاطفة أخوية طبيعية نبيلة، واعتراف بواقع هي أضعف من أن تغيّره، وهي أينما تذهب ومهما نأى بها البعد تعود ثانية بأشواقها إلى قبر أخيها إبراهيم لتضع أشواقها بين يديه.. وتناجي قبره، فأي نور ينضح منه، وأي جمال يكلله؟ فإن فيه أغلى إنسان على قلب الشاعرة. إنه نصيرها وحبيبها وأخوها...

آه يا قبر، هنا كم طاف روحي
هائماً حولك كالطير الذبيحِ
أو ما أبصرته دامي الجروح
يتنزى فرط تبريحٍ وبأس
مرهقاً مما يغنيه الحنين
إن نأى بي البعد ردتني إليك
لاعجات ماتني وجداً عليك
لست تدري أي دنيا في يديك
من حنان وبشاشات وأنسِ
يا لقلبي! أصبحت في الهامدَين

* * *

آه يا قبراً له إشعاع نور
لا أرى أجمل منه في القبورِ!
فيك دنياي، وفي قلبي الكسيرِ
مأتم ما انفكّ مذ بات لديك
قائماً يأخذ منه بالوتين

* * *

وإذا ينزف دمع المقل
يجهش القلب أسىً ما يأتلي
نادباً عندك أغلى أملِ

باكياً فيك نصيري وظهيري
ساكباً من ذوبه غير ضنين[1]

* * *

(١) على القبر (إلى روح إبراهيم) ص ١٢٣ .

الالتزام

«لفظة الالتزام قديمة في الاستعمال اللغوي، لكن التطور الفكري الحديث قد أفاض عليها معنى اصطلاحياً جديداً.

وهي أكثر ما تطلق اليوم في معرض الكلام على الفكر والأدب والفن، حيث نجد في مضامينها مشاركات واعية في القضايا الإنسانية الكبرى: السياسية والاجتماعية والفكرية.

وليس الأمر مقتصراً على المشاركة في هذه القضايا، وإنما يقوم الالتزام في الدرجة الأولى على الموقف الذي يتخذه المفكر أو الأديب أو الفنان فيها.

وهذا الموقف يقتضي صراحة ووضوحاً وإخلاصاً وصدقاً، واستعداداً من المفكر الملتزم لأن يحافظ على التزامه دائماً، ويتحمل كامل التبعة التي تترتب على هذا الالتزام.

من هنا كان الالتزام مرتبطاً بالعقيدة، منبثقاً من شدة الإيمان بها، صادراً في جميع أشكاله وأحواله عن أيديولوجية معينة يدين بها المفكر الملتزم.

ومعلوم أن الالتزام شيء، والإلزام شيء آخر. فالالتزام يعني حرية الاختيار، وهو يقوم على المبادرة الإيجابية الحرة من ذات صاحبه، مستجيباً لدوافع وجدانية نابعة من أعماق نفسه وقلبه [...] ومن طبيعة العمل المسؤول أن يكون هادفاً إلى غاية محددة. وللالتزام الفكري هدف، هو الكشف عن الواقع الراهن، والسعي إلى تغييره؛ أو قل: هو السعي إلى تغيير ما ليس سليماً فيه، لأن المفكر الملتزم يعاين ما ليس حقاً ولا عدلاً ولا خيراً، فيندد به، ويعمل على تحطيمه»[١].

والوجودية السارترية[٢] شأنها شأن الواقعية الاشتراكية «تتمسك بالالتزام في الأدب وتعتبر أن الأديب مسؤول في كل ما يكتب، وأن للأدب رسالة هي رسالة الكشف والتغيير وتحقيق التحولات الاجتماعية والحضارية. ويلتقي المذهبان في اعتبارهما أن الإنسان موقف، وأن القول فعل، وأن الأدب عمل غايته تفجير طاقات الحياة وتحرير الإنسان. كما يلتقيان أيضاً في اعتبار الحرية شرطاً أساسياً من شروط الالتزام، وأنها في صميم العمل الأدبي، وأن الأديب لا يستطيع الهروب مما يجري حوله، فهو مدعو إلى اتخاذ موقف، وأن الأدب واقعة اجتماعية ذات هدف. فالأديب لا يكتب لنفسه وإنما يكتب للمجتمع الذي يعيش في كنفه متوخياً أن يحدث في ضمير هذا المجتمع هزة من شأنها أن تفتح الأعين على الواقع، وتبرز ما فيه من عيوب

---

(١) الالتزام في الشعر العربي/ الدكتور أحمد أبو حاقة ـ دار العلم للملايين. ط ١ ١٩٧٩ ـ ص (١٢ ـ ١٤).

(٢) جان بول سارتر (J.P.Sartre) كاتب فرنسي معاصر من مواليد ١٩٠٥. هو فيلسوف الوجودية الفرنسية وحامل لواء الالتزام في الفكر الحديث.

بقصد الثورة عليها والإطاحة بها، وهو حريص في كل حين على قيم يريد تحقيقها في المستقبل. ومتى تحققت تجاوزها إلى قيم أخرى»[١].

أما عن هموم الشعر العربي الحديث فقد حمل في معظم نتاجه رسالة الالتزام «وتحولت القصيدة في جو الأطر الحضارية الحديثة التي خلقتها ظروف ما بعد الحرب العالمية الثانية في العالم العربي إلى موقف يتصل بشكل مباشر أو غير مباشر بقضية من قضايا العرب المصيرية. ولا ريب في أن كارثة فلسطين كانت طوال ربع القرن المنصرم أم القضايا العربية ومحورها ومنطلقها جميعاً.

فمنذ وقوعها عام ١٩٤٨، اهتز الضمير العربي من أعماق أعماقه، واعتراه ذهول شديد، أفاق منه على محاسبة نفسه ومحاسبة حكامه، وتحليل الهزيمة وتحري ما وراءها من الأسباب المباشرة وغير المباشرة.

ويا لهول ما اكتشف في آفاق الحياة العربية من فساد الحكم وأنظمته، وفساد الإدارة والمؤسسات، وفساد الأخلاق، وتخلف المجتمع في عاداته وتقاليده وأنظمته وثقافته وعلومه وآدابه وعمرانه وتفكيره، وتخلفه في الاقتصاد والإنتاج ومرافق العيش، وإمعانه في الفوضى والتفكك والتنابذ والجهل، وتخبطه في الضعف والعجز والذل والذعر والاستغلال والنفاق والدسيسة والتملق والخمور، والعفن الروحي، والرجعية الفكرية والأخذ بالخرافات والأوهام، والعجز عن

---

(١) الالتزام في الشعر العربي ص ٤٦ ـ ٤٧.

المواجهة المتبصرة الجريئة لحقائق الكون وحقائق المجتمع، وحقائق النفس البشرية، وحقائق الوجود.

وطبيعي أن يؤدي هذا النقد الذاتي إلى الثورة على الذات، وعلى الحكام وإلى التمرد على أوضاع الأمة وأنظمتها، والسعي إلى الانتفاض والتجدد والتطهر [. . .] وكان الشعراء بدورهم يوظفون الشعر لجلاء هذه الأمور ويلتزمون، كالمفكرين، مبدأ التغيير في مجالات الحياة العربية عامة لخلق إنسان عربي جديد يمتلك الشجاعة والإخلاص والصراحة والوعي والثورة والتمرد والثقة بالنفس [. . .] ولعل السمة الكبرى التي يتسم بها الشعر العربي الحديث هي سمة الثورة وذلك انسجاماً مع الواقع العربي وما يقتضيه من تطلعات وتحديات»[١].

وعن ملازمة الحرية للأديب الملتزم يقول توفيق الحكيم:

«يجب أن يكون الالتزام جزءاً من كيان الأديب أو الفنان، ويجب أن يلتزم وهو لا يشعر بأنه ملتزم مثله مثل حمام زاجل ينقل رسالة وهو حرّ طائر لا يشعر بقيد في ساقه ولا بغلٍّ في جناحه.

فإذا شعر الفنان لحظة واحدة أنه يؤدي بفنه ضريبة عليه أن يؤديها وجوباً فإن الذي سينتجه لن يكون فناً»[٢].

وفي مقالة تدعى «أدب الثورة وثورة الأدب» يقول طه حسين عن الأدب الملتزم:

---

(١) المصدر السابق ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩.
(٢) من الأدب ـ توفيق الحكيم ـ المطبعة النموذجية ص ٣١١.

«الأدب يثور قبل أن تثور السياسة، وثورة الأدب هي التي تمهد الطريق لثورة السياسة لأنها تهيء قلوب الناس ونفوسهم وعقولهم. تبغض إليهم نظاماً قائماً وتحبب إليهم نظماً. تحقق لهم آمالاً تمتد إليها عقولهم وتقصر عنها أيديهم. وليست الثورة السياسية آخر الأمر إلا استجابة لثورة العقول والقلوب والنفوس التي يحدثها الأدب وتحدثها مع الأدب مؤثرات أخرى يتصل بعضها بالحياة المادية للناس ويتصل بعضها بالحياة المعنوية»[1].

وفي تعريف لافت وجميل للأدب الملتزم يقول رئيف خوري:

«القصبة النابتة على شطوط الأنهار، تبريها شفرة السكين. وقطعة المعدن يبوتقها المصنع ويحددها سناً. كلتاهما، كلتا القصبة وقطعة المعدن، مادة من غافل المادة وغبيها، وتغمس في الدواة وهي الأخرى مادة غافلة غبية، وتجر على القرطاس، التي لا تعدو صنف المادة الغافلة الغبية، فكيف جاز إذن أن ننسب إلى شيء من ذلك كله المسؤولية فنقول القلم مسؤول اجتماعي؟ [...] الشاعر العتابي في جملة ما أثر عنه من جميل الكلام، تصور القلم باكياً يبكي وأحسبه أنزل قطر الحبر منزلة قطر الدمع فقال:

«ببكاء القلم تبتسم الكتب»

وقال:

---

(١) الرؤية الحضارية والنقدية في أدب طه حسين/ د. يوسف نور عوض ـ دار القلم بيروت ص ٢٠٤.

«الأقلام مطايا الفطن»

وهذا فولتير «يواجه الملك فريدريك البروسي الكبير، فيقول له وكأنما يتحداه:

«لك الصولجان ولكنَّ لي قلماً».

وهذا وليّ الدين يكن، كأنما يسلّ قلماً في وجه السلطان عبد الحميد ساعة يكتب له:

«لأهزَّنَّ به أركان قصرك هزّاً»(1)

أجل إنه القلم.

وإنها الثورة

«نفسر الثورة بأنها ليست مجرد حركة من الخارج تريد أن تهدم واقعاً معيناً.

بل هي حركة من الداخل تريد أن تثور على ذهنية معينة وعلى نفسية معينة.

لهذا، فنحن نؤمن بالصراع وبأن علينا أن نتمثل الصراع، وأن نحرك مفرداته، وأن نثير القضايا السلبية حتى نثور عليها، ونثير القضايا الإيجابية حتى تعطينا زاداً للثورة»(2).

---

(1) الأدب المسؤول ـ رئيف خوري ـ منشورات دار الآداب بيروت ط ١ ١٩٦٨ ـ ص ٤٤ ـ ٤٥.

(2) على شاطىء الوجدان ـ شعر ـ السيد محمد حسين فضل الله، رياض الريس للكتب والنشر ـ ط ١ ١٩٩٠ ـ ص ٩ ـ ١٢.

ويستشهد جان بول سارتر في كتابه الموسوم «ما الأدب» بقول لـ بريس بارين (Brice Parain) أن الكلمات «مسدسات عامرة بقذائفها» فإذا تكلم الكاتب فإنما يصوب قذائفه.

في مُكتنه الصمت، ولكنه إذا اختار أن يصوّب فيجب أن يكون له تصويب رجل يرى إلى أهداف، لا تصويب طفل على سبيل الصدفة مغمض العينين ومن دون غرض سوى السرور بسماع الدويّ»(١).

فأين هو قلم فدوى طوقان وأين هي ثورة فدوى طوقان؟ وأين هو التزام فدوى طوقان؟

نرى عند فدوى طوقان الروح القومية التي تستند إلى أمجاد الماضي ومقارنة الحاضر به في قصيدة (اليقظة)(٢).

أيها الشرق، أي نور جديد لاح في عتمة الليالي السود
لف شمّ الجبال والسهل والحزن، وهام الربى ورمل البيد
وإذا أنت يفتح النور عينيك، فتصحو على الضياء الوليد
وتمطيتَ من طويل خمودٍ ومسحت الجفون بعد هجود
وتطلعت في حماك، حمى الأمجاد، ربع العروبة الممدود

وقد سجلت في قصيدتها «بعد الكارثة» النكبة والهزيمة العربية الأولى حيث تستعرض التخاذل والأنانية والانهزامية التي سادت الجو

---

(١) ما الأدب ـ جان بول سارتر ـ ترجمة وتقديم وتعليق د. محمد غنيمي هلال ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر ص ٢٣ ـ ٢٤.
(٢) اليقظة ص ١٣٤ ديوان فدوى طوقان.

العربي إبان المعركة.

يـــا وطنـــي، مـــالــك يخنـــي علـــى
روحــك معنـــى المـــوت، معنـــى العـــدم
أمضَّـــك الجـــرح الـــذي خـــانـــه
أســـأتـــه فـــي المـــأزق المحتـــدم
جـــرحـــك، مـــا أعمـــق أغـــواره
كـــم يتنـــزّى تحـــت نـــاب الألـــم
أيـــن الألـــى استصـــرختهـــم ضـــارعـــاً
تحسبهـــــــــــم ذرَاك والمعتصـــــــــــم

ويعقب هذا النعي نداء للأقدار بأن تكتسح المؤسسات البالية لعل أمتها تنتفض «مما علاها من رماد القدم».

كـونـي أتيّـاً عـارمـاً واجـرفـي كل ضعيف الروح، واهي القدم
كـونـي كمـا شئـت لظـىً يغتلـي أو عـاصفـاً يقـذف حمـر الحمـم
واكتسحـي أنقـاض هـذا الحمـى مـن كـل ركـن خـائـرٍ.. منهـدم
اكتسحيهـــا وانفضـــي أمّتـــي ممـا عـلاهـا مـن رمـاد القـدم

ثـم تنتهـي القصيـدة بإعـلان الثقـة بـالأمـة وبتحقيـق الثـأر ونـوال النصر..

ستنجلـي الغمـرة يـا مـوطنـي ويمسح الفجر غواشي الظلم
والأمـل الظـامـىء مهمـا ذوى لســـوف يُـــروى بلهيـــب ودم

ثم بعـد النكبـة حلّ عهـد التشـرد العـربي محل التشتت اليهـودي وتوالت على الأسماع والنواظر حوادث البؤس من جوع ويتم وثكل مما

حل باللاجئين الفلسطينيين، فتوالت قصائد فدوى طوقان في وصف هذا الجحيم بمظهريه النفسي والمادي: فاللاجىء بين ذكرى قوم ومجتمع وبيت ومدينة وبين فاقة وعوز وضياع يعيش في جحيم مقيم.

«مع لاجئة في العيد» و «رقيه»: القصيدتان تعبران خير تعبير وأقربه عن دموع الذكريات وأحزان الحاضر وعن حقد الأطفال من أبناء اللاجئين وأيتامهم..

أختاه، أيّ الذكريات طغت عليك بفيضها
وتدفّعت صوراً تثيرك في تلاحق نبضها
حتى طفا منها سحاب مظلم في مقلتيك
يهمي دموعاً أومضت وترجرجت في وجنتيك
يا للدموع البيض! ماذا خلف رعشة ومضها؟..
أترى ذكرتِ مباهج الأعياد في (يافا) الجميلة؟
أهفت بقلبك ذكريات العيد أيام الطفولة؟[1]

في ديوان (الليل والفرسان) (نجد أن الهزيمة عند فدوى طوقان غدت مصيراً فردياً قاتماً يمحو جميع الذكريات ويقلب معطيات الحاضر ويوقعها في ليل دائم لا ينقذها منه سوى قدوم الفرسان، فدوى طوقان التي تسكن في نابلس العاصمة السياسية للضفة الغربية المحتلة.. قد عاينت الهزيمة عياناً وشاهدت قوات العدو تدخل المدينة وتبسط كفها الأسود على مقدراتها ورأت الألوف من مواطنيها يهيمون بلا مأوى ولا ملاذ.. وخبرت خبرة مباشرة تلك اللذة الخفية التي يحس بها المهزوم

(١) مع لاجئة في العيد ١٤٠ ـ ديوان فدوى طوقان.

حين يستطيع إيقاع أخف الأذى بعدوه.. ومارست مذلة الوقوع تحت العسف الصهيوني مثلما مارست نشوة ارتفاع معنويات العرب حين بزغ ونشط وتقوّى عمل الفداء العربي..

إن للديوان وجهين: الأول الانكسار والهزيمة والغدر والخيانة والاستخذاء..

يوم رأينا الموت والخيانة
تراجع المدُّ
وأُغلقتّ نوافذُ السماءْ
وأمسكتْ أنفاسها المدينة
يوم اندحار الموج، يوم أسلمتْ
بشاعةُ القيعانِ للضياء وجهَها
ترمّد الرجاءْ
واختنقتْ بغصّة البلاءْ
مدينتي الحزينة[1]

إنه يوم الاحتلال الصهيوني يوم الموت والخيانة إنه زمن انكشاف القيعان البشعة..

إنه يوم خيم الصمت على المدينة «كالليل غامضٌ» «محمّل بوطأة الموت والهزيمة».

اختفت الأطفال والأغاني

---

(١) مدينتي الحزينة ص ٤٨١.

لا ظلَّ، لا صدى
والحزن في مدينتي يذتُّ عارياً
مخضَّب الخطى
والصمتُ في مدينتي
الصمتُ كالجبال رابضٌ[(١)]
كالليل غامضٌ، الصمتُ فاجعٌ ـ
محمّلٌ
بوطأة الموت وبالهزيمة
أواه يا مدينتي الصامتة الحزينة
أهكذا في موسم القطافْ
تحترق الغلال والثمار؟
أواه يا نهاية المطاف.

* * *

في قصيدة «لن أبكي»[(٢)] التي وجهتها الشاعرة إلى شعراء المقاومة في الأرض المحتلة عام ٦٨ . . تقول:

على أبواب يافا يا أحبائي
وفي فوضى حطام الدور
بين الردم والشوكِ
وقفتُ وقلت للعينين: يا عينين

---

(١) نفس القصيدة ص ٤٨١.
(٢) لن أبكي ص ٥١١.

قفا نبكِ
على أطلالِ من رحلوا وفاتوها
تنادي من بناها الدار
وتنعي من بناها الدار
وأنَّ القلبُ منسحقاً
وقال القلب: ما فعلتْ؟
بكِ الأيام يا دارُ؟..

«بين كل ظلال الحل والترحال والإقامة والظعن لم تستعمل «قفا نبك» بأوجع من استعمالها هنا: زيارة عرب الأرض المحتلة مجدداً لعرب الأرض المحتلة من قديم أو لبقايا هؤلاء العرب. ماذا يملك العربي في هذا المقام غير الوقوف على الأطلال ونعي أهل الدار وذم الأيام وصروف الدهر؟

وهل يقدر لهذه الأمة بفعل تجزؤها وغفلتها أن تعود كما كانت: قبائل تضرب في الصحراء من مكان إلى مكان»[١].

ويجيبها محمود درويش بقصيدة هي من عيون شعره بما تمتاز به من وعي القضية وإيمان وحب للأرض.. فقصيدة (يوميات جرح فلسطيني) تتصف بالجلال في مطلعها وبالصلابة في صلبها وبالرقة في نهايتها وبالإيمان في ختامها.

نحن في حل من التذكار فالكرمل فينا[٢]

---

(١) دراسات تحليلية في الشعر العربي المعاصر ـ محي الدين صبحي.
(٢) من الشاعر محمود درويش «يوميات جرح فلسطيني» إلى فدوى طوقان

وعلى أهدابنا عشب الجليل
لا تقولي: ليتنا نركض كالنهر إليها
لا تقولي
نحن في لحم بلادي، وهي فينا

* * *

لم نكن قبل حزيران كأفراخ الحمام
ولذا لم يتفتّتْ حبنا بين السلاسل
نحن يا أختاه من عشرين عاماً
نحن لا نكتب أشعاراً ولكنّا نقاتل

أما الوجه الثاني: فهو الصدر المكشوف لرصاص العدو والجبهة المرفوعة بالغضب والنفور والبندقية المسددة المتخفية، والتصميم على الإيقاع بالعدو مهما كانت المخاطر، الوجه الآخر هو التحدي.

«حريتي!
حريتي!
حريتي!
صوتٌ أردده بملء فم الغضبِ
تحت الرصاص وفي اللهب
وأظلُّ رغم القيد أعدو خلفها
وأظلُ رغم الليل أقفو
خطوها

ص ٥١٨.

وأظلُ محمولاً على حدّ الغضب
وأنا أناضل داعياً حريتي!.
حريتي!
ويردد النهر المقدس والجسور
حريتي
والضفتان تردان: حريتي!
ومعابر الريح الغضوب
والرعد والإعصار والأمطار في وطني
تردها معي:
حريتي! حريتي! حريتي!..»[1]

إنها بداية الثورة، رغم الرصاص، رغم السجن، رغم القيود الكثيرة، فلا بد لهذا الظلام أن ينجلي، ولا بد للسلاسل أن تنقطع..

حتى أرى الحرية الحمراء تفتح كل باب
والليل يهرب والضياء يدكُّ أعمدة الضباب»[2]

* * *

---

(١) حرية الشعب ص ٥٥٤ ـ ديوان فدوى طوقان.
(٢) نفس القصيدة.

خصائص شعر فدوى طوقان..

(يأخذ «الرمز» بعده الأساسي في «الفعل الشعري» ويصبح أساساً لا غنى عنه في العملية الشعرية.

إنه أبرز وأنضج أسس عناصر إغنائها، ومن هنا أيضاً يمكن للمرء فهم مقولة شيلر التي تركز على أهمية الرمز والتي تعتبر أن كل ما في الشعر ليس سوى رمز للواقع.. «الرمز الشعري» إذن، هو «فعل رمزي» يعتمد الإشارة الموحية، المشبعة بالأبعاد والإيماءات ليعبِّر من خلالها عن معاناة الواقع الفردي/ الجماعي في سياق ربط «الآتي» بـ «الأزلي» ووضعه ضمن طموح الحاضر المستمر إلى الأبدي)[١].

وفدوى طوقان استخدمت الرمز في شعرها ككل شعراء الأرض المحتلة.. فها هي ترمز للثورة بالحصان في قصيدة «لن أبكي»:

أحبائي حصان الشعب جاوز كبوة الأمس
وهبَّ الشهم منتفضاً وراء النهر

---

(١) دراسات حركية الفكر الأدبي. د. وجيه فانوس ص ٥٣.

أصيخوا، ها حصان الشعب يصهل واثق النهمة
ويفلت من حصار النحس والعتمه
ويعدو نحو مرفئه، على الشمس».

وهي تستعمل رمز الفرس الثكلى تعبيراً عن الأمة العربية والفارس رمزاً للقائد الراحل عبد الناصر:

«آه ما آن له أن يترجل
والتوت فوق أساها الفرس الثكلى
وتاهت مقلتاها
في الخضمّ الآدمي الهادر المسحوق
من يفدي فتاها
من يفك الفارس الغالي المكبل
من إسار الموت، من يرجعه
العاشق المدنف الساحة
من يرجعه؟
والتوت فوق أساها الفرس الثكلى
وعرت حزنها آهاً فآها
من يفك الفارس الغالي المكبل
آه ما آن له أن يترجل»[1]

«وتقدم صورة رمزية أخرى مستمدة من مظاهر الطبيعة إذ الريح تعلن أن موته الميلاد، فالريح القوية المتجددة تؤكد أن الأمة حينما

---

(١) على قمة الدنيا وحيداً ص ٦٠٦.

تفقد قائدها لا تموت، بل إنه يبعث من جديد في هذه الأمة من أحضان جراحها وآلامها وعطاء الأمة يستمر برغم كل الآلام»[1].

«قالت الريح: سيأتي
موته الميلاد لا بد سيأتي
في يديه الشمس، ذات الشمس، في
مقلتيه الوجد، ذات الوجد والعشق
المعنّى
من جراح الأرض يأتي
من سنين القحط يأتي
من رماد الموت يأتي
موته الميلاد لا بد سيأتي»[2]

وفي قصيدة (إلى السيد المسيح وعيده) تستحضر الشاعرة شخصية السيد المسيح وتترك لنا الوصول إلى دلالتها الرمزة المعاصرة، وتجعل مدينة القدس تصلب وكأنها تشير إلى أن أولئك الذين صلبوا السيد المسيح قد أعادوا جريمتهم مرة أخرى باحتلال القدس وصلبها.

«يا سيد يا مجد الأكوان
في عيدك تصلب هذا العام
أفراح القدس
صمتت في عيدك يا سيد كل الأجراس

---

(١) الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة. د. صالح أبو اصبع ص ١٢٣.
(٢) على قمة الدنيا وحيداً مرثية الفارس ص ٦٠٢.

من ألفي عام لم تصمت
في عيدك إلا هذا العام»[1]

ثم توظف الشاعرة بعضاً من أقواله:

«قتل الكرّامون الوارث يا سيّدُ ـ
واغتصبوا الكرم
وخطاة العالم ريّش فيهم طيرُ ـ
الإثم

«وهنا لا نأخذ من المثل الذي قدمه السيد المسيح دلالته الحرفيّة، فإن اليهود الذين هم هنا «الكرامون» الذين قتلوا الوارث واغتصبوا الكرم، لم يكونوا حراساً على الكرم «فلسطين» وإنما المقصود هنا استحضار الدلالة الرمزية المعاصرة لتلك النهاية الكرامين، والتي جاءت في إنجيل مرقس حيث إن صاحب الكرم «يأتي ويهلك الكرامين»[2].

واستخدمت فدوى طوقان رمز «الطوفان» رمزاً للاحتلال الصهيوني العدو، ورمزت للأمة العربية بالشجرة. تقول في قصيدتها «الطوفان والشجرة»[3].

«يوم الإعصار الشيطاني طغى وامتد
يوم الطوفان الأسود

---

(١) إلى السيد المسيح في عيده ص ٤٩٩ ـ ديوان فدوى طوقان.
(٢) الحركة الشعرية في فلسطين ص ١٤٠.
(٣) الطوفان والشجرة ديوان فدوى طوقان ص ٤٨٧.

لفظته سواحل همجية
للأرض الطيبة الخضراء
هتفوا، ومضت عبر الأجواء الغربية
تتهادى بالبشرى الأنباء:
هوت الشجرة
والجذع الطّود تحطم، لم تبقَ الأنواء
باغية تحياها الشجرة
هوت الشجرة؟
عفو جداولنا الحمراءْ
عفو جذورٍ مرتوية
نبيذ سفحته الأشلاء
عفو جذور عربية
توغل كصخور الأعماق
وتمدُّ بعيداً في الأعماق.

* * *

ستقوم الشجرة
ستقوم الشجرة والأغصانُ ـ
ستنمو في الشمس وتخضرّ
وستورقُ ضحكات الشجرة
في وجه الشّمسْ
وسيأتي الطيرْ
لا بد سيأتي الطيرْ

سيأتي الطيرْ
سيأتي الطيرْ».

تستخدم الشاعرة أكثر من رمز مفرد فهناك:

«الطوفان الأسود ـ رمز الاحتلال الصهيوني»
«الشجرة ـ رمز الأمة العربية»
«الطير ـ رمز السلام والخير»

(فالرمز هنا يحمل شحنات إيحائية كبيرة حينما تصبح الكلمات المفردة مطلوبة لذاتها ومطلوبة لمعانيها الرمزية أيضاً. وتمهد الشاعرة لهذا الطوفان بيوم إعصار كبير طاغ تلفظه سواحل همجية «الكيان الصهيوني» ويحطم جذوع الشجرة. وهذا مستوى دلالي مباشر إذ تجعل للطوفان معنى واقعياً حين تتحدث عن الأنواء وعن الأشجار وأغصانها وجذوعها التي تبقى في الأعماق. وظهور المستوى الرمزي للرمز خلف الدلالي المباشر هو الذي يكسب الرمز غناه، ولا تصبح الدلالة الرمزية هنا مجرد استبدال مفردة بأخرى بل إن استبدال كلمة بكلمة أخرى يفسد الصورة لأن المعنى الرمزي لا يتحقق من مجرد الإتيان باللفظة المفردة بل من خلال السياق الذي تجيء فيه. وهذه هي الرمزية الحقة التي هي سمة أسلوبه وليست سمة خاصة بالكلمة المفردة)[1].

الموسيقى:

الموسيقى في الشعر من أهم عناصره ولعل الوزن والقافية هما

---

(١) الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة. د. صالح أبو اصبع ص ١٥٦ ـ ١٥٧.

أكثر عناصر الموسيقى أهمية في الشعر.. وإذا كانت عناصر الموسيقى تتعدد لتشمل الجناس في الشعر، إلا أنه يظل للوزن والقافية مكانة خاصة.. فالوزن يتحقق من خلال الإيقاع المنظم الذي يعتبر كما يقول مایاكوفسكي:

«الطاقة الأساسية للشعر، ولا يمكن أن يفسر، ولكنه يمكن أن يوصف بأنه يشبه التأثير المغناطيسي أو الكهربائي»..

ويمكن تعريف الإيقاع «بالمعنى الواسع للعبارة على أنه تعاقب أنغام منسقة في عملية تتابع ألحان ووقت».

يقرر أرسطو في كتابه (فن الشعر) أن الإيقاع والوزن تستخدم جميعها في تحقيق المحاكاة، يقول «على أن الناس قد اعتادوا أن يقرنوا بين الأثر الشعري وبين الوزن فإطلاق لفظ الشعراء عليهم ليس لأنهم يحاكون بل لأنهم يستخدمون الوزن نفسه»[١].

وتأتي القافية لتحقق دوراً مهماً في اتساق النغم إذ بكونها عدة أصوات تتكرر في ختام كل بيت أو سطر شعري، فإن هذا التكرار يشكل جزءاً من موسيقى القصيدة حين يصبح «بمثابة الفواصل الموسيقية يتوقع السامع ترددها ويستمتع بمثل هذا التردد الذي يطرق الأذن في فترات زمنية منتظمة وبعد عدد معين من مقاطع ذات نظام خاص يسمى الوزن»[٢].

---

(١) (فن الشعر) ترجمة عبد الرحمن بدوي القاهر ١٩٥٣ ص ٥ ـ ١٢.
(٢) الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة. د. صالح أبو اصبع ص ١٨٠.

«لم يتخلَّ الشعر العربي عن الوزن باعتباره عنصراً هاماً من عناصر القصيدة إذ يتجاوز في الشعر العربي الحديث نظامان من الشعر الموزون:

١ ـ **القصيدة العمودية**: وهي التي نظمت على البناء التقليدي وتعتمد على وحدة البيت لا وحدة التفعيلة وهي تلتزم بالقافية العمودية بأنواعها المتعددة.

٢ ـ **القصيدة الحرة**: وهي التي تحررت من قيود الشعر التقليدي وزنه وقافيته. وتركت وحدة البيت ولجأت إلى وحدة التفعيلة ونوعت في استخدام القافية دون التزام بنظام محدد لها»(١).

من الأبحر البسيطة التي استخدمت بكثرة لدى شعراء الأرض المحتلة:

الرمل ـ الرجز ـ المتدارك ـ الكامل ـ المتقارب ـ الوافر في قصيدة (مرثية الفارس)(٢) ـ إلى جمال عبد الناصر لفدوى طوقان ترثي القائد الذي فقدته العروبة ـ تستغل الشاعرة إمكانيات بحر الرمل حيث تقول سلمى الجيوسي عنه (يمكنه أن يتقلب بين أيدي الشعراء في ألف لون وقالب محتفظاً دائماً برشاقة هي فيه أصلاً، ولكن لابساً ثوب الحزن مرة والغضب مرة أخرى والمرح ثالثاً)(٣)، تستخدم الشاعرة أغلب صيغ «فاعلاتن»:

---

(١) نفس المصدر ص ١٨٥.
(٢) مرثية الفارس ـ ص ٦٠٢ ديوان فدوى طوقان.
(٣) موسيقى الشعر الحر ـ سلمى الجيوسي ص ١٥٢.

١ ـ وافتدانا	فاعلاتن
٢ ـ آه ما أغلى الفداء	فاعلاتن ـ فاعلان
٣ ـ واشترانا	فاعلاتن
٤ ـ آه ما أغلى الثمن	فاعلاتن ـ فاعلن
٥ ـ وعلى وخز مسامير الألم	فعلاتن ـ فعلاتن ـ فاعلن
٦ ـ وعلى حز سكاكين العياء	فعلاتن ـ فعلاتن ـ فاعلان
٧ ـ أسند الرأس وأرخى	فاعلاتن ـ فعلاتن
٨ ـ هدب جفنيه ونام	فاعلاتن ـ فعلان
٩ ـ وبعينيه رؤى الحب وأحلام السلام	فعلاتن ـ فعلاتن ـ فعلاتن ـ فاعلان
١٠ ـ آه ما آن له أن يترجل	فاعلاتن ـ فعلاتن ـ فعلاتن

نلاحظ في هذه القصيدة كيف استخدمت الشاعرة صيغ المراحل المتعددة في داخل القصيدة الواحدة واستخدمت كذلك إمكانيات السطر الشعري، الذي يطول ويقصر إذ نجد أسطراً شعرية من تفعيلة واحدة مثل السطر الأول والثالث ونجد أسطراً من تفعيلتين مثل الأسطر الثاني والرابع والسابع والثامن.

يمكننا النظر في أبيات القصيدة وموسيقاها الهادئة التي أخالها تنساب جلال الموقف الحزين واستخدام حروف المد وتسكين القوافي (وافتدانا/ آه ما أغلى الفداء/ واشترانا/ آه ما أغلى الثمن)»[1] .

---

(١) الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة د. صالح أبو اصبع ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

التضمين النثري:

(يأتي التضمين النثري غالباً كمعادل موضوعي[1] لحالة نفسية إذ تكثر فيه العاطفة، أو انسياباً لتداعي المعاني، ومحققاً كذلك هدفي القطع والوصل في البنية الإيقاعية للقصيدة أو تعبيراً عن الدرامية والخطابية المباشرة وقد يكون نوعاً من العجز الشعري)[2].

توظف فدوى طوقان التضمين كما يوظفه غيرها من الشعراء ولا تكتفي بإدخال العنصر الدرامي إلى القصيدة. بل إنها تلجأ إلى استخدام اللغات الأجنبية في قصيدة لها تتردد جملة (افتح الباب) بأربع لغات: تقول فيها: من بحر المتدارك:

«وبنو عبس طعنوا ظهري
في ليلة غدر ظلماء..
Open the door
Ouvre la porte
افتاح آت هاديليت
افتح باب!
ـ وبكل لغات الأرض على بابي يتلاطم
صوت الجند

---

(١) المعادل الموضوعي: كما يراه ت.س اليوت يكون بالعثور على مجموعة أشياء على موقف على سلسلة من الأحداث تكون هي الصيغة التي توضع فيها تلك العاطفة حتى إذا أعطيت الوقائع الخارجية التي لا بد أن تنتهي خلال التجربة الحسية استثيرت العاطفة على التور «ت.س اليوت» الشاعر الناقد ترجمة إحسان عباس ص ١٣٣.

(٢) الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة د. صالح أبو اصبع ص ٢٦٣.

- يا عبلة إني . . .

- يا ويلي . . .»[1]

هنا تستخدم اللغات الإنجليزية والفرنسية والعبرية والعربية المنطوقة بلسان يهودي لتؤكد بهذا التضمين غير المموسق هوية الطارقين، إذ إن هؤلاء جاؤوا من شتات الأرض وليسوا شعباً واحداً. وحينما تقدم التضمين النثري تمهد له برابط لفظي . .

(اقرأ خبراً كالأخبار)

ثم تسوق الخبر . . (بيت لحم - فوجىء المزارعون في خربة سكايا بمجموعة من الجرافات خرجت من مستعمرة كفار عصيون وشرعت في قلع المزروعات في أراضي تلك البلدة) ثم تقول شعراً:

(اقرأ شكوى مرفوعة لوزير الحرب

ثم تقدم الشكوى بأسلوب نثري متوائم مع انفعالاتها فهذه الأخبار التي أصبحت تتكرر وتلك الشكوى المتضمنة في الخبر الثالث لم يعد لتكرارها ما يثير عاطفتها أو يشحنها أصبحت جميعها أمراً اعتيادياً لا يحرك شحن الشاعرة ولا يثير عاطفتها ولذا جاء الخبر نثراً تقول:

ذات الأخبار . .

لا شيء جديد في الأخبار

لا شيء مثير»)[2]

---

(١) كوابيس الليل والنهار ص ٥٨٢ ديوان فدوى طوقان.

(٢) الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة. د. صالح أبو اصبع ص ٢٧٦.

وهكذا نجد أن فدوى طوقان تناولت عدة موضوعات:

(الأول: هو حزنها على فقد أخيها الشاعر الفلسطيني العربي الكبير إبراهيم طوقان.

الثاني: هو تجربتها الأنثوية كفتاة حساسة تعيش في مجتمع تحكمه التقاليد القاسية، وإذا قيست فدوى طوقان بشاعراتنا المعاصرات كانت أصدقهن تمثيلاً للعاطفة الصحيحة والشعور الذي يخامر الأنثى وليس معنى هذا أن شعرها مقصور على الوجد والحنين فإن لها تأملات روحية وصوراً حسية منوعة دلت على تتبعها وتعمقها في فهم الكون والحياة مع تيارات الفكر الحديث.

أما الموضوع الثالث فهو قضية فلسطين: فإن لها في فلسطين المنكوبة المنصوبة شعراً لم يقل مثله الرجال..

إن طائفاً من الإلهام الإلهي والفن المطبوع قد تخير فدوى طوقان لتحمل رسالة الشعر النسوي في جيلنا المعاصر يمكّنها من ذلك تضلعها في الفصحى وتمرسها بالبيان وإنها لتجود بالشعر من نفسها وحسها غير منسحبة على التكلف والتقليد ولا مرددة لشعر مصنوع تفوح منه رائحة الترجمة والاقتباس وإن لها لأمداً بعيداً هي منطلقة نحوه وقد انشق أمامها الطريق)(١).

---

(١) من مقال للأديبة السورية وداد السكاكيني في العدد ٩٦٨ الصادر في ٢١ يناير سنة ١٩٥٢ في مجلة الرسالة (بعنوان فدوى طوقان شاعرة الوجد والحنين).

مختارات

أشواق حائرة

مــاذا أحــسّ؟ هنــا، بــأعمــاقــي　　تــرتــجّ أهــوائــي وأشــواقــي
بــي ألــف إحســاس يحــرّقنــي　　متــدافــع التيــار، دفّــاق
ألــف انفعــال، ألــف عــاطفــة　　محمــومــة بــدمــي، بــأعــراقــي
مــاذا أحــسّ؟ أحــسّ بــي لهفــاً　　حيــران يغمــر كــلّ آفــاقــي
جفــت لــه شفتــاي وارتعشــت　　أظــلالــه العطشــى بــأحــداقــي

* * *

نفســي مــوزعــة، معــذّبــة　　بحنينهــا، بغمــوض لهفتهــا
شــوقٌ إلــى المجهــول يــدفعهــا　　متقحمــاً جــدران عــزلتهــا
شــوقــي إلــى مــا لســت أفهمــه　　يــدعــو بهــا فــي صمــت وحــدتهــا
أهــي الطبيعــة صــاح هــاتفهــا؟　　أهــي الحيــاة تهيــب بــابنتهــا؟
مــاذا أحــس؟ شعــور تــائهــةٍ　　عــن نفسهــا، تشقــى بحيــرتهــا

* * *

قلبي تغور به الحياة وقد عمقت ومدّت فيه كالأمد . .
فتهزّ أغواري نوازعه صخّابةً، دفّاقة المدد
ويظل منتظراً على شغف ويظل مرتقباً على وَقَدِ
أحلام محروم تساوره متوحّد في العيش منفردِ
ويود لو تمضي الحياة به للحبّ، مصدر فيضها الأبدي!
. . . .

* * *

وهناك تومىء لي السماء وبي شوق إليها لاهفٌ عارم
فأحس إحساس الغريب طغى ظمأ الحنين بروحه الهائم
وأرى كواكبها تعانقني بضيائها المترجرج الحالم
تهمي على روحي أشعتها وتلفّه بجناحها الناعم
فأودّ لو أفنى وأدمج في عمق السماء ونورها الباسم

* * *

ما لي يزعزعني ويعصف بي قلق عتيٌّ جائح الألم
تتضارب الأشواق حائرة في غور روحي، في شباب دمي
الأرض تعلق بي وتجذبني وتشدّ قبضتها على قدمي
وهناك روحي هائم شغف بالنور فوق رفارف السدم
مستحقراً الأرض، تفزعه دنيا التراب، وهوّة العدم

* * *

روحي يلوب بدار غربته عطشاً إلى ينبوعه السامي
فهناك أصداء يسلسلها صوت السماء بروحيَ الظامي

وهنا، هنا، في الأرض يهتف بي صـــوت يقيّـد خطـو أقــدامــي
صـوتـان.. كم لجلجت بينهمـا يتنــازعـــان شـــراع أيـــامـــي
وأنـــا كيـــان تـــائـــه قلـــق يطوي الوجود حنانه الظامي![1]

* * *

(١) وحدي مع الأيام.

في درب العمر[١]

«لا تصافح كل من لاقيت في طريقك . .
إن من الناس من يجب أن لا تمد إليهم يداً، بل مخلباً ناشباً».

زرادشت : نيتشه

أتيت درب العمر مع قلبي ... أغرس زهر الحب في الدرب
ليغرق الناس بأشذائه ... تنهلّ في دفق وفي سكب
ليغمر الصحب بعطر الهوى ... فينعموا في فيئه الرطب
فبعثروا زهري بأقدامهم ... ووطأوه في الثرى الجدب! . .
وارتج قلبي خلف صدري أسى ... ولجّ في دقّ وفي وثبِ
فقلت : في أهلي وفي إخوتي ... غنًى عن الناس، عن الصحب
وخلتني ملأتُ منهم يدي ... وخلتهم قد ملأوا قلبي . .
فلم يطل وهميَ حتى هوى ... خنجرهم وغاص في جنبي!
وضحكت نفسيَ في سرّها ... هازئةً مني ومن حبي . .
وسرت مع قلبي وحيدين . . لا ... شيء سوى الأشواك في الدرب! .

---

(١) وحدي مع الأيام.

الصدى الباكي

شاعري، لا تقسُ في عتبك، لا تظلم وفائي
أنـا حسبـي قسـوة الـدنيـا وإعنـات القضـاء
آه لـو تـدري بـآلامـي، بمـأسـاة شبـابـي
لبكـى قلبـك وارتـج ليـأسـي وعـذابـي

* * *

أنـا لـم أنـسَ هـوى فجّر ألحـانـي وشعـري
أنـا لـم أنـسَ هـوى رفّـتْ بـه أيـام عمـري
أنا أنسى؟ كيف؟ لا يا حلم قلبي، يا نجيّي
لا، ومـن ألّـف روحينـا علـى الحـب النقـيّ

* * *

سل ضمير الليل، هل أودعته أسرار حبي
هـل تغنيـت بـأشعـارك فـي وحـدة قلبـي
إن هـذا الليـل يطـوي كـل أسـرار حيـاتـي
إنــه معبـد أحـلامـي ومـأوى ذكـريـاتـي

* * *

شعرك العاتب كم فجّر دمعي، كم شجاني!
والنداء الشاعريّ العذب كم هزّ كياني!
لو تراني والهوى يصرخ في روحي الأسير
وأنا أشدو بأشعارك في الليل الكبير

* * *

أنت روح طائر.. يشدو على كل الغصون..
يرتوي من خمرة الحب، ومن نبع الفتون
وأنا روح سجين قصّت الدنيا جناحي
نغمي ينبيك عني، عن مدى عمق جراحي!

رحمة يا شاعري، وانظر إلى أصداء روحي
إنها في شعريَ الباكي استغاثات ذبيح!
إنها يا شاعري أنات مظلوم طريدِ
إنها غصّات مخنوقٍ بأطواق الحديدِ

* * *

كلّما ضمّك حضن الليل في صمتٍ وحزنِ
ومضى قلبك حيران الهوى يسأل عني..
أرهف السمعَ، تجد روحي مجروحَ النداءِ
ضارعاً في ألم:
رحماك لا تظلم وفائي!.[1]

---

(١) وحدي مع الأيام.

في محراب الأشواق

هذا مكانك، ههنا محراب أشواقي وحبّي
كم جئته والدمع، دمع الشوق مختلج بهدبي
كم جئته والذكريات تفيض من روحي وقلبي
يمددن حولي ظلهن، وينتفضن بكل درب

* * *

هذا مكانك، كم أتيت إلى مكانك موهنا
تمضي بيَ الساعات لا أدري بها، وأنا هنا
روح أصاخ لهتفة الذكرى، وللماضي رنا
يتنسم الجوّ الحبيب، ويستعيد رؤى المنى

* * *

هذا مكانك، مثل روحي، فيه إحساس كئيب
متحسرٌ. . يصبو إلى الماضي، إلى الأمس الحبيب
متسائل عن شاعرين، هواهما حلم غريب
كم رنّحا بالشعر جوّهما، ففاض جوى مهيب

* * *

هذا مكانك، أين أنت؟ وأين أطياف الفنون؟!
المقعد الخالي يحنُّ إليك مرفقه الحنون..
أسوان، يرمقني وقد أهويت أنشج في سكون
ومواجدي ملهوفة الثيران، تهدر في جنون؟

* * *

ذنبي الذي قد هاج ثورة قلبك المترفع
كفّرتُ عنه بأدمعي، بتنهدي بتوجعي
كفّرتُ عنه بما ترى من ذلتي وتخشُّعي
وبخفض قمة كبريائي الشامخ المتمنِّع!

* * *

ذنبي؟ وما ذنبي ألا ويلاه من ظلم القيود!
ما حيلتي والغلُّ في عنقي على حبل الوريد
أواه؛ حتى أنت لم تنصف قلبي الشهيد؟!
أواه؛ حتى أنت تظلمني مع القدر العنيد؟!

* * *

قلبي يئن، يلوب في ألم، يسائل في شرود:
لم لا يعود؟ فلا يجيب سوى صدى: «لم لا يعود»
وأروح، في شفتيَّ أشعارٌ، وفي كفيَّ عود
وأعاتب الأيام.. والزمن المفرَّق.. والوجود!.

* * *

لم لا تعود؟ أنا هنا وحدي بهيكل ذكرياتي

وحدي، ولكني أحسُّك في دمي، في عاطفاتي
أصغي لصوتك، للصدى المنغوم في أغوار ذاتي
وأراك من حولي، وفيَّ، وملء آفاق الحياة! .[1]

* * *

(١) وحدي مع الأيام.

في مصر (١)

يا مصر، حلم ساحر الألوان، رافق كل عمري
كم داعبت روحي رؤاه فرفّ روحي خلف صدري
حلم كظـل الواحـة الخضـراء في صحـراء قفـرِ
أن أجتلي هذا الحمى.. وأضمه قلباً وعين..
واليوم، في حلم أنا، أم يقظةٍ، أم بين بين!؟

* * *

صدحت بقلب إذ وطئت ثراك أنغامٌ سواحر
فكأنما في قلبيَ المأخوذ غنّى ألف طائر
وغرقت في أمواج إحساسٍ بعيد الغور غائر
أأنـا هنـا؟ فـي مصـر، فـي الـوادي النبيـل؟!
أأنا هنا في النيل، في الأهرام، في ظل النخيل؟!

* * *

وتلفتتْ عيناي في دهشٍ، وفي لهفٍ غريب..

---

(١) وحدي مع الأيام.

ماذا؟ هنا الدنيا الخلوب تُثير أهواء القلوب. .
ماذا؟ هنا نار الحيـاة تؤجّ صارخـة اللهيب. .
في كل مجلىً فتنةٌ رقصتْ، وسحرٌ مدّ ظلّه
ماذا؟ أمصرٌ أم رؤى أسطورةٍ من ألف ليلة؟!

* * *

كيف اتجهت تجاوبٌ وصدىً لموسيقى الوجود
في النيـل يعزف لحنـه الأبـدي للشط السعيـد
في وشوشات النسمة المعطار، في النخل الميودِ
حتى النجوم هنا أحسّ لهنّ ألحاناً شجيّة
حتى السحاب أخاله تحدوه موسيقى خفيّة

* * *

يا مصر، بي عطش إلى فرح الحياة. . إلى الصفاء. .
يـا مصـر، نحـن هنـاك أمـواتٌ بمـقبـرة الشقـاء
لا يـطمئـن بـنـا قـرارٌ. . لا يعـانـقنـا رجـاء. .
لا شيء إلا ضحكة الهزء المريـر على المبـاسم!
كالضحكة الخرساء قد يبست على فك الجماجم!

* * *

نفسي مصدّعة. . فضميني لأنسى فيك نفسي
قسَتْ الحياة وأترعت بمرارة الآلام كأسي
والظلمة السوداء مطبقة على روحي وحسي
فاحني عليّ وزوديني من مفاتنك الجميلة. .

هي نهزة لم أدرِ كيف سخت بها الدنيا البخيلة! .

❊ ❊ ❊

يا ليتني يا مصر نجم في سمائك يخفق
يا ليتني في نيلك الأزليّ موجٌ يدفق
يا ليتني لغزٌ. أبو الهول احتواه، مغلقُ. . .
تهوى وتنسحق الدهور مواكباً، وأنا هنا
بعض خفيٌّ من كيانك لستُ أدرك ما أنا!!

❊ ❊ ❊

يا مصر حلم ساحر الألوان رافق كل عمري
كم داعبت روحي رؤاه، فرف روحي خلف صدري
حلم كظلم الواحة الخضراء في صحراء قفر
أن أجتلي هذا الحمى وأضمّه قلباً وعيْن
واليوم في حلم أنا؟ أم يقظة؟ أم بين بين؟!

❊ ❊ ❊

هل تذكر؟[1]

لقاؤنا ودربنا الأرحبُ
وشاطىء النهر
والعش في حديقة الزهر
وحارس الحديقة الطيبُ
والمقعد الأخضرُ
هل تذكر!

* * *

لقاؤنا إذ تسبق الموعدا
خطاي تستهدف عبر المدى
ركناً هناك
على رصيف الشارع الصاخب
وحيث ألقاك
سبقت مثلي ساعة الموعد

---

(١) وجدتها ـ فدوى طوقان.

هناك تغدو فرحتي فرحتين
وأقطع الشارع في لمحتين
كأن في خطوي جناحين
هناك ألقاك
في قلق الانتظار
منفعلاً مستثار
تهتف. أبطأتِ!
وفي خطفه
يفقدنا الرصيف روحين
مع الهوى طائرين
ونثني نحو المدى الأبعد
قلباً إلى قلب، يداً في يد
هل تذكر؟

* * *

ونعبر الجسر ونمضي إلى
طريقنا الثاني على الشاطىء
طريقنا المنسرح الهادىء
نمشي ونمشي وملء قلبينا
فيض هناء ماله حد
ودربنا المسحور يمتد
درب رؤوم الظل، درب طويل
كنت أرى مثله بأحلامي

قبل اللقاء
أيام كان اللقاء
وهماً جميل
كالمستحيل
هل تذكر؟

* * *

وتحتوينا
في قلبها المخضوضر الحاني
هناك في حديقة الزهر
عريشة ترعى أماسينا
كأنها عشّ العصافير
وحولنا من روح نيسان
شيء خفيّ الإيحاء كالسحر
يومىء عبر الظل والنور
هناك ننأى
في عشنا المنعزل المعشب
عن حارس الحديقة الطيب
وتلتقي في نظرة ظمأى
للنبع عينانا
وفي انجذاب تلتف روحانا
على عناق شغف ملتصق
لا ينتهي

ونشتهي
لو حجّرتنا ربَّة الحب
ونحن فوق المقعد الأخضر
قلباً إلى قلب فلا نفترق
هل تذكر؟ . . .

* * *

القيود الغالية [1]

أضيق، أضيق بأغلال حبي
فأمضي وتمضي معي ثورتي
أحاول تحطيم تلك القيود
ويمضي خيالي
فيخلق لي عنك قصة غدر
لكيما أبرّر عنك انفصالي

* * *

وأقصيك عني بعيداً بعيد
لعلّي أعانق حريتي
وأقطع ما بيننا
غير أني
أُحسن إذا ما انفصلنا
كأني

---

(١) ديوان «وجدتها».

لُفِظْتُ وراء حدود الوجود
ويثقل قلبي
وتنقص روحي
وتصبح مبتورة رازحة
وأكره أهلي
وأكره نفسي
وتعرى الحياة وتمسي
قفاراً بغير جمال
بغير ظلال
ويصبح عيشي بغير مذاق
فلا طعم، لا لون، لا رائحة
ويسألني عنك قلبي
ويصرخ في ألم في احتراق:
لماذا جننت فأقصيته؟
لماذا؟
لماذا؟
تراه يعود

* * *

وحين تعود
يعود الوجود
يمد ذراعين مفتوحتين
إليَّ، ويصبح قلبي خفيفاً

يغني كطير سعيدٍ
بنى عشه في ربى الجنة
وروحي التي بُترت يا حبيبي
تُرد بقيتها الضائعة
إليها،
وتخصب حولي الحياة
وتبدو ملونة رائعة
وأمضي وتمضي معي فرحتي
أعانق فيك عبوديتي
وأحضن أحضن تلك القيود

* * *

حبيبي بما بيننا من عهود
بضحكة عينيك
إذا أنا ضقت بأغلال حبي
وثرت عليها وثرت عليك
فلا تعطني أنت حريتي
فقلبيَ قلب امرأة
من الشرق . . يعشق حتى الفناء
ويؤمن في حبه بالقيود

* * *

تشك بحبي (١)

وكنت مع الآخرين وحيدة
بعيداً هناك
بعيداً بتلك الأقاصي البعيدة
وزاديَ منك كتابٌ وصورة
تنام بصدري
وزاديَ منك زجاجة عطر
ينثّ بأعماق روحي عبيره
ويبعث حولي هناك
روائح دنيا هواك

* * *

وحين رجعت إليك
رجعت بكل تعطُّش قلبي
لأنشر ظلِّي عليك

---

(١) وجدتها ـ فدوى طوقان.

لأعطيك حبِّي
وكانت بعينيك نظرة عتبِ
وش!كِ وريْبِ
وقلت: نسيتِ هواي
عرفتِ هناك سواي
تمرُّ دهور ولا تكتبين
ولا تسألين
ألا تعرفين
جنوني وكيف يُثار
وكيف أغار
وغيرة حبي دمار ونار
ألا تعرفين؟

* * *

تشكّ بحبي؟
لأني حجبت رسائل قلبي
كأنك تجهل أسباب صمتي
تغار؟ أحبّ أحبّ تغار
ولكن لماذا، لماذا تغار
وأنت الحياة
وتعرف أنك أنت الحياه
وانك لي منتهى مأملي
وأن اسمك الحلو ما يأتلي

يرفّ صداه
على شفتي تمتمات عباده
وهمس صلاه
وفيض سعاده
يفيض على حاضري موجها
ويغمر مستقبلي
وها أنا بين يديك
بكل حنيني إليك
بكل تعطُّش قلبي
وترتاب بعدُ بحبي؟!.

* * *

نَدَمٌ (١)

كم يسألون
لمن ترى تنشدين
هذي الأغاني الناعمات الحنون
دافئةً مشرقة كالضياء
مثقلة بالعطاء
ومن هواك الكبير
هذا الذي تسفحين
وتبذلين
له كنوز الشعور
من ذاتك المليئة الخيِّره
من روحك النضيرة المزهره
لعله أطيب إنسانِ
لعله أجدر إنسانِ
بكل هذا البذل، هذا السخاء

(١) وجدتها ـ فدوى طوقان.

* * *

وأخفض الطرف وأبقى على
صَمتي المريب
غامضة لا أجيب

* * *

لكن صوتاً ساخراً في ألم
منبعثاً من قلب جرح الندم
ينصبّ في أغواري المبهمة
مردّداً في غنّة مفعمة
بالهزء، بالضحك الحزين المرير.
لعله أطيب إنسان
لعله أجدر إنسان
بكل هذا البذل هذا السخاء

* * *

واخجلي!
واخجلي لو أنهم يعلمون
ما أنت أو من تكون.

* * *

لن أبيع حبه[1]

مهداة إلى الشاعر الإيطالي
سلفاتور كوازيمودو
(ذكرى لقائنا في ستوكهلم)

أي صدفة
صدفة كالحلم حلوة
جمعتنا ههنا في هذه الأرض القصيّة
نحن روحان غريبان هنا
ألّفت ما بيننا
ربّة الفن، وقد طافت بنا
فإذا الروحان غنوة
سبحت في لحن (موزارت) ودنياه الغنية

* * *

قلتَ: في عينيكِ عمق،

(١) ديوان «وجدتها».

أنت حلوه
قلتها في رغبة مهموسة الجرس.
فما كنا بخلوه
وبعينيك نداء
وبأعماقي نشوه
أيُّ نشوه
أنا أُنثى فاغتفر للقلب زهوه
كلما دغدغه همسك: في عينيك عمق
أنت حلوه
أنا يا شاعر لي في وطني
وطني الغالي حبيبٌ ينتظر
إنه ابن بلادي لن أضيع
قلبه
إنه ابن بلادي لن أبيع
حبّه
بكنوز الأرضِ
بالأنجم زهراً
بالقمر
غير أني تعتري قلبي نشوه
حينما تطفو ظلال الحب في عينيك
أو تومض دعوة
أنا أنثى، فاغتفر للقلب زهوه
كلما دغدغه همسك: في عينيك عمقٌ
أنت حلوه.

صلاة إلى العام الجديد[1]

في يدينا لك أشواق جديده
في مآقينا تسابيح، وألحان فريده
سوف نزجيها قرابين غناءٍ في يديك
يا مطلاًّ أملاً عذب الورودِ
يا غنياً بالأماني والوعودِ
ما الذي تحمله من أجلنا؟
ماذا لديك! .
أعطِنا حباً، فبالحب كنوز الخير فينا
تتفجَّرْ
وأغانينا ستخضرّ على الحبّ وتزهر
وستنهلّ عطاءً
وثراءً
وخصوبه

(١) أعطنا حباً.

أعطنا حباً فنبني العالمَ المنهار فينا
من جديد
ونعيد
فرحةَ الخِصْب لدنيانا الجديبة

* * *

أعطنا أجنحة نفتحْ بها أفق الصعودِ
نتطلق من كهفنا المحصور من عزلة ـ
جدران الحديدِ
أعطِنا نوراً يشقُّ الظلمات المدلهمّةْ
وعلى دفْقِ سناه
ندفع الخطو إلى ذروة قمّةْ
نجتني منها انتصارات الحياه.

* * *

تلك القصيدة(١)

«ألا ليتني يا هواي الحبيب عرفتك من قبل تلك القصيدة»

وتحضن ديوان شعري يداك
وتقرأ لي من قصيدة حبٍ
كتبتُ سخافاتها في سواك
وما كان حبّاً، ولكنّهُ
حماقة شيءٍ توهّمتُهُ
وحين انجلى الوهْمُ أبغضتُهُ
وأبغضتُ تلك القصيدة

* * *

وأنت تظلّ تؤكِّد لي أن
أجمل شعريَ تلك القصيدة
فألعن نفسي

---

(١) أعطنا حباً.

وألعن طيشي القديم
وغلطةَ أمسِ
وألعن تلكَ القصيدة. .
وأمضي أُتفِّهُ أبياتَها
وأكشف زَيْفَ انفعالاتها
وألوانها الباهتات البليده
ولكن سدى.
وتظلُّ تعيدُ
وتقرأ لي أنت تلك القصيدة
وفي منتهى حنقي يا حبيبي
وفَوْرةِ غيظي أهبُّ إليك
وأسعى لديوان شعري
فأنزعه من يديك
أهمّ بتمزيق تلك القصيدة
أودّ لو أن القصيدة تمسي
هباءً ذَرَتْهُ أكفّ الرياح
أودّ لو أن القصيدة شيءٌ
يموت ويُطْمَرُ في قاع رمس
وتضحك من حنقي يا حبيبي
وثورة نفسي
وتمضي بمكرٍ لذيذٍ بريءٍ
تؤكد لي أن أجمل شعري
وألطف شعريَ تلك القصيدة

وترنو إليّ، وأرنو إليك
وفي ندمي، ندمي وانخذالي
أروح أغمغم بين يديك:
ألا ليتني يا هوايَ الحبيب
عرفتك من قبل تلك القصيدة.

* * *

ذاك المساء [1]

ذاك المساء
والشارع الممدود تسحب فوقه شمسُ ـ
الخريف
حُزَماً بقايا من ضياء
والصمتُ يحتضن المكان سوى رفيف
أشجاره، وخطىً لبعض العابرين
ساروا هناك على الرصيف
ساروا بلا هدفٍ بلا قصدٍ ـ
حيارى تائهينْ
لم أدر فيم وقفتُ؛ فيم تسمّرتْ
قدمي على ذاك الرصيف
لم أدرِ ماذا شدّني عند الجدار
هل كنتُ أبحث في ضياعي عن وجودي؟
هل كنتُ في قلق الحياة

---

(١) أعطنا حباً.

ذاك المساء
أسعى بأعماقي إلى شيء بعيدِ
أسعى إليه، أودّ لو ألقاهْ لكن ـ
لا أراهْ؟
كان الفراغ يحطُّ في عينيَّ ثِقلَهْ
وتفاهة الأشياء تُلقي
ظلّها الخاوي بنفسي
وتلفُّ أيامي البطيئات المملّهْ
فحكاية الحب التي أنهيتها
شيعتُها
ودفنتُها
من أمسِ أمس
ها نحنَ قد مرت علينا
عشرون يوماً فارغاً مرت علينا
عشرون يوماً ما التقينا
ووقفت
«ماذا لو يمر الآن بي؟
«أنا كيف ألقاه لو التقت العيونْ؟
«لا، لن أمد يدي إليه لن ـ
يحركني فرح!
«ذاك الجنونْ
«ما عاد مثل الأمس يُبدعُ لي الفرح
«سأرد عن عينيه وجهي

«لو يمر الآن بي
«سأظل أرنو للفراغ
«كأنه ما مرّ بي
«لا ، لن أبالي لو يمرُّ
وبقيتُ في ظل الجدار
لم أدرِ فيم بقيت في ظل الجدار
قدمي مصفّدة وطرفي تائه لا يستقر

* * *

هو!! وانتفضْتُ، وحاصرت عيناي
منعطف الطريق
وقطعتَ مفترق الدروبِ ورحت تدنو
من مكاني
هي خطوةٌ أو خطوتانِ
ووقفتَ في ظل الجدار معي هناك على
الرصيف
لم أدرِ ما قلتَ، كيف تعانقت منّا اليدان
ببساطةٍ، بسهولةٍ، وتسمرتْ
عيناي في الوجه الذي أدْمَنْتُهُ
في واقعي المحتوم، في قَدري الذي قاومتُهُ
عشرين يوماً ضائعاً قاومْتُهُ
ورفضتُهُ...

* * *

لقاء كل ليلة[1]

أحبابنا خلف الحياة والزمان
الليل ميعاد لنا
كل مساء هاهنا يضمّنا لقاء
لكن لقاؤنا حزين
لكن لقاؤنا مهين
تظلّ فيه ضحكة القضاء حولنا
تهدر في شماتة وفي جنون
تغوص في أعماقنا كخنجر
يغوص غائراً إلى القرار
بلا مبالاة يغوص غائراً
إلى القرار

* * *

أحبابنا يا موحشين بالغياب

---

(١) أمام الباب المغلق.

أيامنا
أحبابنا، والباب بيننا أصمّ
بالموت موصد وبالعدم
نوازع الأشواق كل ليلة تردُّكمْ
إلى عيوننا
أحبابنا
بالحبِّ نلقاكم وبالألم
والجرح ليس يخطىء الميعاد ـ
كل ليلة هنا
يضمنا لقاء
نحبُّه، وإن يكن حزين
نحبُّه، وإن يكن مهين

* * *

مكابرة (١)

أهذا أنت؟ من أيّ الكهوف ـ
بزغتَ يا وجهاً طمرناهُ
وألقيناه في الغيهب، في أعماق
ماضينا
ورحنا نشرب النسيان في صمتٍ
وفي صمتٍ نعبُّ مرارة التسليم
والإذعان للأقدار يوم هوى بنا البنيان واندحرت أمانينا

* * *

أما كنّا تشاغلنا
عن التذكار والأشواق!
وفوق كآبة الأعماق أسدلنا
ستار الرفض والكبر
وقلنا للعيون الطائشات السودِ ـ

---

(١) أمام الباب المغلق.

قلنا: يا أعزَّ عيون
صحونا، نحن بعد اليوم لن نسكر
فردّي الكأس عنّا يا
أعزَّ عيون.
ورحنا نخنق الإحساس نلجمُه
بهذا القلب، نلجم رعشة -
الإحساس والشعر
وكانت أجمل الأشعار ما زالت
بهذا القلب ترعش فيه لكنّا
وأناها وقلنا لن
نريق سدىً أغانينا
ولن نسقي غرور الزنبق النشوانِ -
مهما رفَّ، لن نسقيه -
حتى غابة العطرِ
خنقنا نفحها فينا
وفوق كآبة الأعماق أسدلنا
ستار الرفض والكبرِ

* * *

شُغلنا عنك وانفتحتْ
لنا الآفاق تدعونا
تُجِدُّ لنا منىً أخرى
وتزرع حولنا الأفياء تمطرنا

بألف رجاء
وقلنا: يا خلاص الروح
أخيراً قد تعافينا
فلا تحنان، لا أشواق، لا ذكرى
تنادينا . .

* * *

فمن أيِّ الكهوف بزغتَ ـ
يا وجهاً عبدناه
زماناً، ثم في أعماق ماضينا طمرناه
أما كنّا ذهلنا عنك حتى قيل ـ
لم نعرف هواك؟ فأي ينبوعٍ
من التحنان والذكرى
من التهيامِ والذكرى
تفجّر بغتةً فينا

* * *

نكابر، ندَّعي أنا
تعافينا.
نكابر، يا ضلال الكبر، يأبى أن
يُقرَّ الكبْرُ أنك في قرارتنا
نداء قاهر كالموت. كالأقدارِ ـ
يأبى أن
يقرَّ الكبْرُ أنّك لهفةٌ أبديةٌ ـ
فينا

إلى صديق غريب (١)

صديقي الغريب
لو أنَّ طريقي إليك كأمس
لو أن الأفاعي الهوالك لَيستْ
تعربد في كل دربِ
وتحفر قبراً لأهلي وشعبي
وتزرع موتاً وناز
لو أن الهزيمة لا تمطر الآن
أرضَ بلادي
حجارةَ خِزْيٍ وعار
ولو أنَّ قلبيَ الذي تعرفُ
كما كان بالأمس لا ترعفُ
دماه على خنجر الانكسار
ولو أنني يا صديقي كأمسي
أدلُّ بقومي وداري وعزّي

(١) الليل والفرسان.

لكنتُ إلى جنبك الآن عند ـ
شواطىءِ حبّك أُرسي
سفينة عمري
لكُنّا كفرخيْ حمامْ . .

* * *

المصادر والمراجع

١ ـ ديوان فدوى طوقان ـ دار العودة ـ بيروت ١٩٨٨ ـ ٦٤٠ صفحة.

٢ ـ الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة منذ عام ١٩٤٨ حتى ١٩٧٥ المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ـ طبعة أولى ١٩٧٩، د. صالح أبو اصبع.

٣ ـ صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر ـ رجاء النقاش ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت طبعة أولى ١٩٧٦.

٤ ـ دراسات تحليلية في الشعر العربي المعاصر ـ محي الدين صبحي منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ دمشق ١٩٧٢.

٥ ـ دراسات في حركية الفكر الأدبي. د. وجيه فانوس دار الفكر اللبناني ط ١ ١٩٩١.

٦ ـ الالتزام في الشعر العربي ـ د. أحمد أبو حاقة ـ دار العلم للملايين ـ ط ١ ١٩٧٩.

الفهرس